مُحمّد إبرَاهِيمْ

أيامِنا الحلوة

اعترافات

"تلك اللحظات الخاطفة
التي تربطنا بالحياة"

دار دوّن

فهرس الموضوعات

الفصل الأول: البحث عن صديق ___ ٥
١ - بداية الرحلة ___ ٩
٢ - سكر بابا ___ ١٥
٣ - المعلم الأول ___ ١٩
٤ - في كُتّاب القرية _ ٢١
٥ - كونان _ ٢٨
٦ - «أجدع صحاب» ___ ٣٢
٧ - بداية الرحلة الحقيقية ___ ٣٩
٨ - (نهاية رحلة البحث) فتّش عن المرأة ___ ٤٤
الفصل الثاني: العظماء السبعة ___ ٥٥
١- البرغوث ٥٩
٢ - الهولندي الطائر ٧٠
٣ - سحر الكاريزما _ ٧٨
٤ - الخطة (ب) ___ ٨٥
٥ - حلو الحلو ___ ٩٤
٦ - ميراث النبوة ___ ١٠٢
٧ - قبل ما تشوفك عنيا ___ ١٠٨
الفصل الثالث: الطريق.. ___ ١١٩

١ - (الفقد) _ ١٢١
٢ - الخذلان _ ١٢٩
٣ - الوحدة _ ١٣٤
٤ - فقدان الشغف __ ١٣٨
٥ - الخوف _ ١٤٢
٦ - الطاووس ____ ١٤٦
٧ - سرطان الروح _ ١٥٠
الفصل الرابع: وماذا بعد ___ ١٥٧
١ - هذا هو عدل ربك ١٥٩
٢ - «الدنيا ريشة في هوا» mode Airplane __
١٦٣
٣ - لكيلا تأسوا ___ ١٦٧
٤ - لا تقدر بثمن.. _ ١٧٣

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

الفصل الأول
البحث عن صديق

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

«من الصعب جداً شرح معنى الصداقة، فهي ليست شيئاً يمكن أن تتعلمه في المدارس، وإذا لم تتعلم معنى الصداقة الحقيقي؛ فأنت لم تتعلم أي شيء».

محمد علي

١ - بداية الرحلة

من الصعب دائماً أن تواجه شعور الوحدة.. إلا إذا كانت بناءاً على رغبتك الكاملة في الانعزال.. دائماً ما يحدث أن تشعر بأنك في مكان لا تمت له بصلة.. ويدور داخلك ضجيج من كل مكان، ويتردد السؤال القاسي داخل نفسك:

«أنا بعمل إيه هنا؟!»

في هذه اللحظة تشعر أنك مغترب.. في وطن ما كمنفى.. خاوٍ على عروشك لا تمتلك الرغبة في التحدث

أو الاندماج.. إلى أن يأتي صديقك المفضل الذي دائماً ما يتأخر.. والذي غالباً قد أضاع ساعات غالية من عمرك وهو يقول لك: «خلاص بالبس الكوتشي اهو».. أو «نازل ع السلم».. وأحياناً كثيرة: «لما آجي هبقى أفهمك».

الغائب الذي لا حجة معه.. ذلك الذي يتأخر بفعل جينات الدب القطبي المتأصلة بداخله؛ فهو كسول بالفطرة وبطيء بالوراثة.. يفعل كل شيء ببطء شديد.. لكنه يظل دائماً وأبداً الصديق الأفضل والأوحد طوال الوقت.

هكذا الصديق وطن مُصغر.. عينك الثالثة وجسدك الآخر.. مرآتك الأولى وجزيرتك المنعزلة.. صديقك الحميم في اللعبة أثناء الـ «Multiplayer»، وعدوك اللدود في نفس اللعبة أثناء «singleplayer».

دائماً ما يَراكم الناس كمتلازمة.. مثل ثنائية «الشاي وسندوتش الجبنة» و«المكرونة والبانيه». مراعاة نظير من الدرجة الأولى. لا يمكن أن ترى فلاناً دون فلان.. كان لي صديقان في أيام الجامعة.. تعرفت على أحدهما بحكم أنه كان يقوم بالغناء.. حيث طلب مني كتابة بعض الأغاني ليقوم بتلحينها وعرضها على نجوم الصف الأول لـ «نقب على وش الدنيا».

وافقت بالطبع، وكنا نلتقي من حين لآخر.. أصبحت صديقاً مقرباً له.. نسهر ونأكل في أوقات متأخرة من عربات الكبدة الشعبية في مواقف الميكروباصات.. تطاردنا كلاب الشوارع في آخر السهرة.. لا ينتابنا الشك فيما بيننا إلا في أدوار «الكوتشينة»، وليس لنا وقفات ارتجالية إلا في لعبة «ثبت صنم».. كثير من الأحداث في قليل من الوقت.. كل هذا وأنا على طبيعتي.. غير مدرك على الإطلاق أن هنالك من يغار من وجودي.. ويشعر أنني استوليت على صديق عمره دون وجه حق.. لمجرد أنني «حتة شاعر»..

كل هذا كان غائباً عني إلى أن كنا في إحدى الليالي.. نلعب «الصراحة»، وتدور الزجاجة.. وسُئل صاحبنا الغيور.. عن شخص يتمنى أن يختفي إلى الأبد.. فما كان منه إلا أن أشار إلي.. وهنا شعرت كأنني في إحدي ليالي ديسمبر الطويلة.. أظلمت الحياة في وجهي وتملكني الإحساس بالذنب.. بعد تفكير وسؤال تأكد شكي.. كان يشير إلى تلك الصداقة.. ووجدت نفسي في ميزان مع الطرف الآخر.. وكان صديقي متردداً.. فلم أنتظر، الأمر لم يكن يحتاج إلى مزيد من التفكير.. لا أحد حكراً على أحد. أدركت أني لم أكن في المكان المناسب منذ البداية..

لم تنقطع العلاقة مرة واحدة بالطبع.. انقطعت الأرواح عن بعضها فقط.. ظلت اللقاءات الروتينية موجودة إلى أن تلاشت هي نفسها بالتدريج، حتى أصبحت «واحشني عايز أشوفك.. يلا نظبط يوم ونتقابل».

ثم انتهى الموضوع تماماً.

وهنا شعرت بالوحدة الشديدة.. وبدأت رحلتي في البحث عن صديق عمري.

* * *

«لا تمشِ ورائي، فأنا لست قائداً. ولا تمش أمامي، فأنا لا أتبع أحداً. فقط كن بجانبي، كن

صديقي».

ألبير كامو

٢ - سكر بابا

بدأتُ حياتي وحيداً، ومنعزلاً.

لم أكن منطوياً، كنت منعزلاً، الانطوائيون يحبون قضاء الوقت مع أنفسهم فقط، يستمتعون بالوحدة، ويتأثرون سلباً بوجود عدد من الناس حولهم ولو كان قليلاً.

كنت منعزلاً وكان انعزالي جبرياً، أشاهد الحياة من نافذة إقامتي الجبرية في «الجبس».. لم أكن مُفضلاً في حياة أحد.. كنت أحظى بتعاطف الجميع.. لكني لم أكسب صداقات قوية أبداً.. علاقات سطحية هامشية تبدأ في طابور الصباح، وتنتهي مع جرس انتهاء اليوم الدراسي.. زملاء الفصل، كشف الغياب، أنا أعرف جميع أسمائهم الثلاثية.. راغب عبد الخالق المهدي.. هاني صلاح أبو رية.. مصطفى جمال محفوظ.. والكثير والكثير.. لم يتسن

لي إطلاقاً نسيان أي شيء من «أولى ابتدائي».

الأبلة فايزة وصوتها الرفيع.. تلك الشامة في خدها الأيمن، ولون الخرطوم البرتقالي، لوحات الشرف، قائمة مجلس إدارة الفصل.. الأمين والأمين المساعد، إلى آخر تلك التفاصيل الصغيرة جداً.. والكبيرة جداً.

لم أحصل أبداً على حياة هادئة..

كنت ضعيف البنية.. لكني مشاكس، شخص «لمض» و«مشاكله كتير»، ذكي مقارنة ببقية الطلاب، كانت مقومات في النهاية لا تصنع بطلاً ولكن.. لا أتذكر أنني تركت شيئاً لم أفعله.

لعبت كرة القدم ولم ألمس الكرة أبداً!.. كنت ألعب في مركز يسمى «السقوطة».

و«السقوطة» هو فرد زائد في أحد الفرقتين. فقط لأنني لن أتركهم يلعبون بدوني.. كانوا يعاملونني معاملة الشبح، لا أذكر أبداً أن أحداً مرر لي الكرة.. ولكني أذكر الهدف الهام الذي أحرزته جيداً، أحرزت هدفاً عكسياً في مرماي ذات يوم!.. مما جعل الفريق الآخر - الخصم - يعتبرني جزء منه، صرت بطلاً في هذه المباراة بالنسبة لهم، وصاحب فضل.. طلبوا مني أن أقف أمام مرمى فريقي القديم لآخر العام.. لعل وعسى أن أحرز هدفاً ليس

عكسياً هذه المرة!

مرت الأيام.. وأمرت الوزارة بترميم المدرسة المجاورة لنا، وأثناء فترة الترميم أصبح طلاب المدرسة المجاورة زملاء لنا في نفس المدرسة، في فترة مسائية مؤقتاً، لحين انتهاء فترة الترميم.

كنت أقابلهم أحياناً في الفترة ما بين خروج مدرستنا ودخول مدرستهم.. بحثاً عن صديق، وعن تفاصيل جديدة أخرى، أو أي أحداث مثيرة.

أثناء كل ذلك لم يكن لي أي أصدقاء حقيقيين سوى ثلاثة: أبي وجدتي وصديقي الخارق.

أحببت جدتي بشدة، كانت هي الوحيدة التي تسمعني كما أحب.. تهتم بي اهتماماً كبيراً وتعاملني بمنتهى اللطف.. تضحك على نكاتي مهما كانت سخيفة، وتسرد لي قصصاً مسلية عن الماضي، عن جدي وعن أبي.. وكيف كان أبي طفلاً شقياً مثلي. كانت هي ونسي الأول.. ومدللتي ونشيد صباحي، ومدرستي الثانية بعد أمي التي أخذ العمل معظم وقتها في تلك المرحلة، فكنت أراها «تخاطيف».

كانت جدتي هي صديقتي الثانية بعد بطلي الخارق (أبي).. صانع السعادة في البيت، ورصيد أحلامي وضوء

حياتي اليومي.

أشقيت أبي بكل ما تحمل الكلمة من معنى.. فكنت كثيراً ما أتوه عن منزلي، ويظل بالساعات يبحث عني ليجدني مختبئاً أو ضالاً داخل إحدى محلات ألعاب «الأتاري».. يأخذني من يدي في هدوء تام وابتسام قائلاً:

- «تعالا يا سكر بابا»

ويحملني، وإذا تعب من حملي يتركني لأمشي.. وكنت أقفز وأتحرك مثلما يتحرك «سوبر ماريو» في اللعبة التي كنت ألعبها منذ دقائق.

«صديقي الثالث».. صديقي الخارق

تلك الموسيقى.. وعدد المحاولات اللانهائي والـ (coins) والتكبيرات والعرائس والوحوش وبيوت النار.

كل هذا قد كُتب بالحبر الأزرق في ذاكرتي.. لكيلا يُمحى أبداً.

لن أنسى كم من الساعات قضيتها وأنا ألعب..أقع لأقوم وأحاول مرة أخرى.. كنت أكره فترات الدراسة، لأن أمي تخبئ «الأتاري» فوق الدولاب.. فتنتهي أحلامي البسيطة وطموحي في مساعدة (ماريو) أن يجد عروسه المخطوفة منذ أن كنت في «أولى ابتدائي» حتى «سنة رابعة».

الآن كبرت قليلاً، سأصبح أتحدث الإنجليزيه مثل أختي «مها».. وأدرس العلوم والدراسات الاجتماعية،

وأخيراً سيأتي لنا مدرسون آخرون غير «أبلة فايزة».

الأستاذ «محمود البنا».. المدرس البسيط الموهوب جداً في التدريس.. تشعر عندما تعرفه جيداً أنه ولد مدرساً.. لبق ومتدين وملتزم.. حكى لنا الكثير عن الله.. وروى لنا النكات والفوازير والجمل الإعرابية الصعبة جداً.

لم أكن أرد السلام بحماس أبداً على أي مدرس إلى أن أتى أستاذ محمود. فكنت أرد دائماً بحماس شديد: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».. أحبني مثل ابنه.. وأحببته كما أحببت أبي أيضاً.. كان يستحق لقب أفضل مدرس قابلته في حياتي.. وفي تلك اللحظة استحق الأستاذ محمود البنا أن أمنحه لقب صديقي رقم «٤».

* * *

٣ - المعلم الأول

أستاذي العزيز:

لو أنك كنت في عصر «السوشيال ميديا»، ومهتماً بها لكنت المؤثر الأول.. تعلمتُ منك المحبة والتواضع والاحترام.. أدركت الفرق في الكلام بين «أنت» وبين «حضرتك»، وكيفية وضع كل ذي مقام في مقامه.

تعلمت منك الصلاة الحقيقة، الصلاة بمفهومها الحقيقي.. ليست تلك الصلاة التي تنتهي قبل أن تبدأ. عرفت منك الله حقاً.. رأيت رحمته في وجهك الباسم.. ورحمتك بنا.

هل تذكر حين سألتنا جميعاً عن جمع «حيلة»؟.. ولم يعرف أحد في الفصل الإجابة سواي؟ حتى تلك التلميذة النجيبة الأكاديمية؟.. التي كانت تذاكر اليوم بيومه، وتهتم بكل تفاصيل المنهج. لاحظتَ أني كنت معجباً بها.. فأمرتني أن أعاقبها بدلاً منك بـ «عصايتين كده وكده يعني».. ضربتُ الأولى كما اتفقنا، وفلتت يدي في الثانية.. ورأيتها تبكي بشدة، فقد كانت تضع كرامتها فوق كل اعتبار.. ولقد خاصمتني أسبوعاً كاملاً.. حتى أصلحتَ بيننا.

أتذكر أيضاً حين أخرجتنا لنكتب سورة «المسد».. وكتبناها كلانا، ولكنها كتبت «تبت يدي» بدلاً من «يدا». وتفوقتُ أنا، وثار الأولاد في الفصل حفاوة بي.. وظللتُ أعاندها حتى بكت مرة أخرى.. لن أنسى حين أخذتني إلى

جانب المكان وأخذت تحدثني عن احترام المنافس، عن شرف المنافسة وعن أخلاق العظماء، عن مفاهيم لم أكن أدرك عن معظمها شيئاً حينها.. لكنني بعدها كبرت، كبرت يا أستاذنا وفهمت.

الآن أحصد أنا ما زرعتَه أنت.

من المؤكد أنك تذكر مثلي «الأستاذ نسيم». مدير المدرسة.

كنت أنا قصير القامة جداً.. كما كانوا يقولون «مش باين من الأرض، ومش طايل الحنفية». وكان هو ذاهباً ليتوضأ للصلاة.. ووجدني أعاني مع ذلك الصنبور العالي.. أشرب الماء قطرة بقطرة.. هل يدرك أحدهم معنى أن تنتظر قطرات الماء للتجمع في فمك كي تروي جزءً ضئيلاً جداً من عطشك، وهل يدرك أحد معنى أن ترضى بهذا، لقد أدرك الأستاذ نسيم هذا، أدركه وشعر بي وقتها.

حملني بيد ووضع يده الأخرى أمامي فشربت. شربت أنا حتى ارتوت إنسانيته هو، ثم ضحك لي وقال مبتسماً:

- على فصلك.. بس بعد ما تصلي.

سلامٌ عليكم أينما كنتم.. ورحمة من الله على الأستاذ نسيم.. وعلى كل من اعتبر التدريس رسالة.. لا مهنة.. واهتم بالتربية قبل أن يهتم بالتعليم.

شكرًا لكم. سأذكركم ما حييت.

* * *

٤ - في كُتّاب القرية

حتى إجازتنا لم تكن خالية من التعلُّم.

كنت أذهب بصحبة أختي «ماجي» إلى كُتاب القرية، بالمناسبة.. هي لم تكن صديقتي، ولم أعتبرها كذلك. ولم يعتبرها أحد كذلك أبداً.

فقد رأيتها ورآها الجميع أمي الحقيقية.. رغم أن الفارق بيننا لم يكن سوى أحد عشر شهراً.. كانت تحمل حقيبتي، وتنظم كتبي، وتساعدني في ارتداء حذائي، وتضرب من يهدد أماني الجسدي تطاولاً، وتنهر من يسخر من طريقتي في المشي.. كانت غيمة تظلني أينما ذهبت.

كانت تحب أكل القصب جداً.. وفي أحد الأيام في الصباح الباكر طلبت مني أن أستخدم السكين في قسم أحد عيدان القصب إلى نصفين. تحمست وسارعت في تناول السكين لتنفيذ هذه المهمة الصعبة عليها والسهلة علي بكل تأكيد، وبدلاً من أن أقسم العود إلى نصفين قسمت أحد

أصابعها.

أذكرها جيداً عندما كانت تصرخ وتجري في كل مكان، ولم أكن أدري ماذا أفعل.. أيقظَت تلك المسكينة القرية بالكامل من شدة الصراخ.. وانتهى اليوم بـ «كام غرزة».. وإلى الآن نتذكر هذا اليوم ونضحك عليه كثيراً بعد أن كنا نبكي بسببه.

كانت الحياة أكثر بساطة وأقل مللاً، كنا نستيقظ في السادسة صباحاً لنذهب إلى كتاب «الشيخ عبد الرحيم»، أو كما كنا نقول «سيدنا».

ينقسم الكُتاب إلى قسمين، معلم القراءة.. وتحفيظ القرآن الكريم.

يذهب الأطفال من سن الثالثة.. يتعلمون القراءة أولاً، ومن ثم يحفظون القرآن الكريم.

كان نظاماً إدارياً دقيقاً كالساعات السويسرية.

أيام الخميس والجمعة إجازة، أما باقي الأسبوع ينقسم إلى «اللوح.. الصحح.. الماضي».

- الصحح هو أن تتعلم كيف تقرأ جزءً جديداً من آيات القرآن.. ثم تذهب لتقرأها من المصحف أمام الشيخ.

- اللوح هو أن تأتي في اليوم التالي لتقرأ ما حفظت بالأمس أمام الشيخ غيباً.

- أما الماضي فكان مبني على أن تراجع تسميع السور التي تعلمتها على مدار وجودك في الكتاب.

لن أنسى أبداً الشيخ أحمد الفقي.

كان رحمه الله شيخاً كفيفاً.. وكنا نسمع أساطير عن كونه لا ينسى شيئاً، ولا يسرح في شيء أبدًا، لن تستطيع خداعه مهما حاولت، ولو فتحت المصحف أمامه ظناً منك أنه لا يراك فأنت على أعتاب عقاب شديد العنف، سيعرف في نفس اللحظة و«هتبقى ليلتك سودة».

كان رحمه الله له حركة شهيرة جداً للعقاب، وهي أن يقوم بفرك حصوة صغيرة من حصى الأرض في أذنك حين تخطئ في التسميع، أو عند ارتكابك خطأ ما في الكتاب، ويظل يؤلمك بها إذا تماديت في الخطأ عند التسميع تحديدًا.

أعترف أن الكتاب في تلك الأيام كان من أسباب كوابيسي.. لكني لم أجلس بين يدي الشيخ أحمد الفقي كثيراً، فقد انتقل إلى رحمة الله بعد تواجدي في الكتاب بشهور قليلة.

كان من جيل العظماء المؤسسين للكتاب.. لم يتبق لنا من هذا الجيل حتى الآن سوى «الشيخة هانم»، وكانت مكفوفةً أيضاً، لكنها كانت طيبة جداً.. ورحيمة جدًا، وصوتها دافئ

ودائمة الابتسام.

تسأل عني وعن عمليتي الجراحية القادمة، والتي كان قد اقترب وقتها في تلك الأيام البعيدة.. تشاركني آلامي الصغيرة وتهون علي ما استطاعت. كان لهذا أثره النفسي العظيم علي وأنا ما زلت ذلك الطفل الصغير الذي يشعر طول الوقت أنه مختلف عن الجميع في كل شيء، كنت أحبها كثيراً.. كانت دائماً يمشي معها أحد أحفادها ليأخذ بيدها إلى الطريق، وكانت تمر على بيوت القرية كل يوم جمعة.. لتجلس وتقرأ بعضاً من آيات القرآن فيها.

وفي بيتنا كان يوجد أريكة في «الفراندا».. تجلس عليها كلما جاءت، وإلى يومنا هذا لازلت كلما ذهبت إلى القرية أرى طيفها جالساً يقرأ القرآن لتحل البركة على المكان، وأرى طيفها وهو يساير جدتي مثل الماضي، لازال كل شيء يدور في رأسي كأنه حدث بالأمس.

كان ذهابي إلى الكتاب يضغطني نفسياً.. كنت متمرداً منذ صغري وبطبيعتي لم أعتد أبداً أن أكون في نظام دقيق بهذا الشكل.

كان من الصعب علي في سني وشقاوتي أن أذهب وأحفظ وأجلس في صف طويل، وحين أصل إلى وقت التسميع أجدني وقد نسيت تماماً ما حفظت.. أتلقى نصيبي

من التوبيخ ثم أرجع لإعادة الحفظ، وتبدأ رحلتي ومعاناتي مع الحفظ من جديد، لأعود فأسمع وأنسى وهكذا..

قررت يوماً أن أهرب.. أقنعتُ «ماجي» بالفكرة، أم أقول أنها هي من أقنعتني.. لا أذكر، لكن فكرة هذه الجريمة الصغيرة كانت مشتركة بيننا.

اتخذنا قرارنا دون تفكير طويل، وهربنا من الذهاب إلى الكتاب أسبوعاً كاملاً.

كنا نخرج من بيتنا لنجلس في الشارع لساعتين أو ثلاث ساعات، ثم نرجع وكأننا قد ذهبنا إلى الكتاب وأنهينا ما علينا. ظللنا هكذا أسبوعاً كاملاً، إلى أن بعث سيدنا بجارة لنا تدعى «مريم» لتسأل عنا.. وقالت لجدتي أننا متخلفون عن الكتاب منذ أسبوع كامل، وكانت علاقة سيدنا بجدتي طيبة وقوية، فقد كانت أخته في الرضاعة، والود موصول بين العائلتين، لذلك قرر أن يطمئن على غيابنا الغريب هذا.

تم نصب الكمين لنا وتم إلقاء القبض علينا.. وذهبنا إلى الكتاب في ذلك اليوم، «وأكلنا علقة ساخنة».. كان العقاب رهيباً حتى أني رجعت إلى البيت وقلت لجدتي دون خوف أنني لا أريد أن أذهب إلى الكتاب مرة أخرى.

فقالت لي:

- يا عبيط عصاية الفقي من الجنة.

بعدها جلست معي جدتي وعلمتني درسي الأهم.

علمتني أن أتعلم القرآن لا أن أقرأه.

فهمتني كيف أتدبر معانيه.. لا أن أحفظها.

علمتني كيف ينفعني علم اليوم في مشقة الغد، ومن هنا بدأت رحلتي الجديدة مع القرآن، حتى صاحبته وتعلقت به جداً.. حتى صرت أستأنس به وكأنه صديقي رقم «خمسة».

لم يكن في الكتاب «حمّام».. كنا نستأذن عن طريق إشارة باليد مفهومة ومعروفة للجميع، نذهب إلى مكان خلف بيت «الحاج ربيع»

ذلك الفلاح البسيط.. صاحب المحراث ذو الصوت المزعج.. وصاحب الشجرة المقدسة لدينا جميعاً.. شجرة التوت. وما أدراك ما شجرة التوت عندنا في ذلك الزمن!

كنا بعد انتهاء الكتاب وحين يأتي موسم التوت نتجمهر تحت تلك الشجرة.. لم نكن نجني الكثير منها، فقد كان معظم حصادنا بلغة الفلاحين البسطاء «عجر»، وتعني التوت الذي لم ينضج بعد.. كان صاحب أكبر حصاد غالباً هو صاحب أثقل حذاء يلقي به ليُسقط ما استطاع من حبات التوت غير الناضج غالباً.. وكنا نأكل التوت من

على الأرض.. هكذا بترابه دون تجهيز أو حتى غسيل، لكن كان لكل شيء طعم مختلف ومعنى لا ينسى.

لن أنسى أبداً بيت الأستاذ «محمد محفوظ» بجوار الكتاب، وكيف كانت والدته تعد أعظم فاتح شهية عرفه التاريخ.. كانت تترك ثمار «الخيار» ليذبل أو بمعنى أدق «يعجز» وتضعه في «المش» لعدة أيام.. وكنت أطلبه بالاسم.. هذه اللحظات كانت من أمتع لحظات حياتي، خاصة حين أضع «الطعمية» الساخنة في «العيش البلدي» مع ذلك الخيار المخلل الغريب العظيم جداً.

كنت أفهم حينها معنى كلمة طعام شهي، ومعنى كلمة استمتاع بلذة الأكل، الإحساس بالسعادة من أكلة بسيطة شهية كان إحساساً لا يمكن وصفه، خاصة لطفل مساحة الاستمتاع عنده في ذلك الزمن محدودة، كذلك أساليب الاستمتاع بسيطة، لكنها كانت سعادة حقيقة خالصة صافية، تغسل القلب والروح تمامًا، ولم أكن قد تلوثت بهموم المدينة بعد.. وكانت هذه المتعة بمثابة تصبير على الخوف الذي ينتظرني حينما نعود إلى الكتاب للتسميع.

لن أنسى أبداً كيف كنت أعاني حين يأتي يوم «الماضي»، ويأمرني سيدنا أن أعيد تسميع سورتي المجادلة والحشر.. فقد كنت أجلس في الكتاب حتى العشاء

إلى أن ينتهي الكتاب ويكتب لي سيدنا «يُعاد»، وتستمر المعاناة عدة أيام حتى أحفظ السورتين مؤقتاً «بالعافية»، وأنتهي من تسمعيهم «بطلوع الروح».

لكني رغم كل شيء كنت سعيداً، كنت سعيداً جدًا في تلك الأيام.. وهذا هو أكثر شيء أذكره، وأُصبر نفسي بين حين وحين عندما تجول بذاكرتي تلك الأيام الرائعة لأجدني أقول لنفسي بين وقت وآخر، لقد كانت أياماً جميلةً، أيامًا حلوة.

* * *

٥ - كونان

في أيام الخميس والجمعة كنت أذهب لألعب مع جيران لنا عند مكتب أبي. كان يأخذني معه أحيانًا كثيرة، فتعرفت على هؤلاء الجيران، أصبحت أنا وأخوتي نلعب معهم.. وكان جوار مكان اللعب الدائم سوراً يسمى «سور شاكر»

كان سوراً يرتفع حوالي ٤ أمتار.. دائماً ما يكون إلى جواره «نقلة رمل»، غالباً من مستلزمات بناء لم يكتمل،

أو بناء انتهى وهذا ما تبقى منه.

كان أصدقائي الجدد يتسلقون السور بالاستعانة بهذه الكومة من الرمل.. ثم يقفزون على الرمل مرة أخرى.. وكنت أرى إحساساً رائعاً بالسعادة يبدو من لمعة جميلة في أعينهم الصغيرة.. كان شعوراً رائعاً بالنسبة لهم لم أجربه إطلاقاً.

فقد كنت أعلم في قرارة نفسي أنني لن أستطيع.. لست مؤهلاً جسدياً لفعل هذا.. لكني يوماً ما - بدون أي مقدمات - قررت تسلق السور وسط دهشة الجميع.

وقف الجميع حولي يراقبونني في صمت، صعدت بصعوبة شديدة.. حتى وصلت إلى حافة السور.. كنت سعيداً للغاية.. وتأهبت للقفز على التبة الرملية لأجرب إحساس الطيران للمرة الأولى في حياتي ولو لثانية واحدة.

لكن حدثت الكارثة كما يحدث لي عادة

سقطت من فوق السور لكن في الاتجاه الخاطىء، في الجهة الأخرى حيث لم يكن يوجد سوى الأرض الصلبة القاسية، وانتهى الأمر بوجودي في المستشفى في غرفة الطوارئ.. لم أكتفِ بالسقوط بعيداً عن كومة الرمال التي ستمتص جزءً كبيراً من الصدمة، لكني أيضاً لمزيد من سوء الحظ، سقطت فوق حجر كبير.. وفُتحَ رأسي وسال

منه دم غزير.

يومها تعلمت درسين هامين في طريقي للحصول على متعة المغامرة

الدرس الأول: أن المغامرة عظيمة..

والدرس الآخر: التهور في المغامرة قد يكون قاتلاً.

تعلمت أموراً عدة هامة من تلك التجربة البسيطة القاسية، تعلمت أن الشجاعة مطلوبة.. لكن الحذر يجب أن يحاوط هذه الشجاعة ليحفظها من جنون التهور ومخاطره.

لازمت الفراش لمدة شهر تقريباً.. حينها أهداني والدي «Reciver» لمشاهدة قنوات فضائية، وكانت هذه هي أول مرة أتعرف على قناة «spacetoon».. وشاء القدر أن أقابل صديقي رقم «٦».

المحقق كونان

«يبدو واثقاً.. يعمل جاهداً.. لا يخشى المحن»

أدهشني ذلك الصغير العبقري.. رأيت فيه نفسي بشكل ما.. وشعرت أنه صورة أخرى مني ولكن في عالم موازٍ.

كيف كان يقوم بحل أصعب القضايا بمنتهى البساطة.. كان نموذجاً مشابهاً لظروفي، فاندمجت معه بكل روحي، وأخذ من طفولتي ما أخذ.. بل إن هذه القناة أخذت من طفولتي

ساعات وأيام.

كانت «سبيستون» تملأ فراغات حياتي.. وتعوضني عن وحدتي.. صادقت أبطال المسلسلات جميعاً وتعلقت بهم.. حزنت معهم وفرحت في انتصاراتهم.. بكيت حين مات المعلم «فان» في مسلسل «داي الشجاع».. وفرحت عندما انتصر «داي» على «هتلر» زعيم الشر.

كنت أجمع صور «البوكيمونات».. وسلاحف «النينجا».. وأسعى جاهداً للحصول على «بلابل بي بليد» و«سيارات سابق ولاحق».. شاهدت «زورو وباتمان والضاحكون وعلاء الدين.. والأسد الملك.. وتيمون وبومبا». وأعجبت بصداقتهما، وتمنيت أن أحظى بصداقتهما لأكون ثالثهما في المرح والضحك اللانهائي.. كانت أياماً ممتعةً للغاية، صنعت مني إنساناً بسيطاً وروحاً مرحة، أحببت الضحك والابتسام، وأحببت التحدي والمغامرة، ونشأت على هذه الأفكار البسيطة التي جعلتني بعدها بسنوات طويلة أتجاوز المحن الصعبة والمعقدة.

* * *

٦ - «أجدع صحاب»

الآن كبرت، شكلاً وربما مضموناً.. زاد إحساسي بالأشياء وتنوع إدراكي لها.. مسح الوقت زجاج نظارتي وأصبحت أرى الأشياء كما هي.. وأرى الأمور كما تبدو حقاً.

أصبحت في الجامعة.. من قرية صغيرة إلى مدينة مزدحمة.. ومن مدينة مزدحمة إلى أخرى أكثر ازدحامًا وضوضاء.

من الخضرة الشاسعة الممتدة ورائحة الصباح إلى الأسفلت العريض الممتد ورائحة المصانع وعوادم السيارات و«أوتوبيسات» النقل العام.. من الهدوء إلى الصجيج..ومن البراح الواسع إلى الزحام الذي لا ينتهي أبداً.

مدينة طنطا

تلك المدينة شديدة الحرارة والرطوبة ظهراً.. تشعر أنها تسبق كوكب عطارد في ترتيب المجموعة الشمسية.. أو على الأقل يمر بها خط الاستواء.

كانت رحلتي اليومية بسيطة.. لكن الروتين كان له قدرة رهيبة أن يعقد كل شيء، مهما كان بسيطاً.

أغرب ما في الجامعة دائماً أنك تشعر بوجودك داخل

ترس الحياة العامة بتعقيدات متنوعة.. ترى الناس من كل الأنواع والطبقات المختلفة اجتماعياً وثقافياً..

هنا ابن الفلاح البسيط إلى جوار ابن الموظف العادي مع ابن المهندس الكبير الذي يعمل بالخارج، بجوار ابن الدكتور الذي يدرّس لكم جميعاً في المحاضرات.

المدارس الخاصة مع التجريبية مع الحكومية.. الكل في النهاية يصب في الجامعات الحكومية، من يأتي بسيارة خاصة ومن يأتي متعلقاً بنهاية الباب الخلفي لحافلة النقل العام، مع من أتى سيراً من سكن المدينة الجامعية القريبة، وأيضاً من استقل قطار الأسكندرية - طنطا ٦:٤٠..

سميت الجامعة بهذا الاسم لأنها جامعة مشتقة من الكلمة العربية «الاجتماع».

أي الاجتماع حول هدف وهو التعليم والمعرفة.

في البداية عرف التاريخ الجامعة الأولى في بلاد الإغريق، ثم بلاد فارس والهند ومصر.

لكن من المتعارف عليه أن أقدم جامعة بالمفهوم الحديث للتعليم العالي فهي جامعة «بولونيا» بإيطاليا.

كان تكوين الصداقات في الجامعة من أسهل ما يمكن.. الأمر الأصعب هو أن تحافظوا على تلك الصداقة خلال فترة الجامعة. أما الأمر شبه المستحيل مؤخراً، فهو

المحافظة على هذه الصداقة بعد الجامعة.

غالباً أصدقاء السنة الأولى يدخلون «فلاتر» الأيام.. يتم الفرز على مدار الأشهر الأولى من السنة الأولى، من يستمر معك بعد العام الأول هو في الأغلب سيستمر معك لسنة التخرج. ويقال أن أصدقاء الكليات المختلفة أكثر قدرة على الاستمرار في علاقة الصداقة، خاصة أنه لا يوجد رابط يجمع بينهم سوى الصداقة، فلا مصالح من نوعية المحاضرات المنقولة والملازم المصورة وأسئلة الامتحانات، إنما هي صداقة خالصة من أجل الرفقة أو الاستمتاع، أو تضييع الوقت والعمر، لكن لا توجد مصالح مادية مباشرة.

في الجامعة عرفت الزميل الطيب والزميل المتباهي، عرفت الفوارق بين كلمات مهمة مثل صاحب، صديق، زميل، معرفة.. ودرجاتها، وكيفية التمييز بينهم في التعامل، ومخاطر الخلط بسذاجة بين هذه المسميات والمفاهيم، وما يمكن أن يؤدي إليه.

ظلت العلاقات تتهمش وتخبو إلى أن تبقى لي ما تبقى، أربع أو خمس أصدقاء.. كنا نتقابل ليلاً على المقاهي.. لا أذكر أننا كنا نتحدث في شؤون الدراسة سوى أيام الامتحانات.. لا أدري هل اخترت أصدقائي

فعلاً.. أم لم يكن أمامي سواهم.. هل أحببتهم لشخوصهم، أم أحببت الفترة نفسها، الذي أعرفه جيداً أنها كانت بالنسبة لي مرحلة هامة وجميلة وصعبة أيضاً.

كنت متعطشاً لإثبات ذاتي.. نجتمع تحت سلم «تجارة إنجلش».. وأقول لهم بعض قصائدي.. نردد بعض الأغاني ونقوم بتقليد أشهر الفنانين.. نحكي بعض النكات الجديدة أو حتى المكررة.

الفكرة أن الونس وحده كان كفيلاً بأن يجعل هذه الأوقات هي أجمل ما نملكه في حياتنا، حيث يهرب العالم كله بمشكلاته بعيداً في خلفية باهتة ضبابية لا يمكن لروحك أن تلمحها، ويحتل وجود «شلة الجامعة» عالمك بالكامل.

كنا بالكاد في بداية ظهور الفيسبوك.. وكانت تلك الجلسات وسيلتنا للمتعة والتسلية قبل ظهور «الكوميكس» والفيديوهات وغيرها من وسائل حرق الوقت والعمر كالشمعة من طرفيها بكل الطرق.

عندما أنظر الآن إلى ما حدث هذه الأيام أجد أن التكنولوجيا قتلت قدراً كبيراً من الإحساس الحقيقي بالمتعة.

الآن أنا في بيتي أجد كل أفلامي المفضلة

«أونلاين».. لدرجة أنها لم تعد مفضلة أبداً!.. الأغنية التي تمر بالصدفة في الراديو طعمها أحلى بكثير من تلك التي تختارها أنت من «اليوتيوب»، أغاني السيارة فقدت جزءً كبيراً من جمالها بسبب ال «Aux».. آمنت دائماً أن الأفلام والموسيقى والكتب وكل ما يمت للفنون بصلة، لا يجب أن يكون الحصول عليه سهلاً.. لن تشعر بقيمة الكتاب إلا إذا تعبت للحصول عليه.

ولن تعرف قيمة الشيء فعلاً إلا بعد صعوبة الحصول عليه، أو فقدانه.. كما ويمكن القول أنك لن تعرف مدى حبك للجامعة إلا عندما تخرج منها.

كنت قد أحببت سذاجتي وفطرتي.. أحببت كوني الفلاح البسيط الذكي الذي أبهرته أضواء المدينة بشكل إيجابي.. كنت لبقاً ومهذباً.. لكني لم أكن أبداً على دراية بصيحات الموضة.. لا أظن إطلاقاً أن هنالك من يذهب للجامعة في سنته الأولى مرتدياً حذاءً أصفر اللون.

في الجامعة هنالك من يقع في الحب ويرتبط بهدف أن «يقضيها».. وهنالك من يتعب لتحصيل الدراسة من الساعة الأولى ليضع اسمه في ترتيب أوائل الدفعة ويكون هدفه محدد وواضح من البداية.. وهنالك من يقف في المنتصف.. يترنح بين المقبول والجيد.. من يدفع السنوات

دفعاً كي تنتهي.

لا أذكر أنني خرجت من الجامعة سوى بصديق واحد فقط.. عرفته في الجامعة.. ثم لم نتقابل بها أبداً.. فنحن لم نكن من هواة الحضور.. كنا نتقابل خارج الأسوار دائماً، وأحيانا في الامتحانات التي لم تكن تنتهي أبداً..

«عادل» صديقي الأهم على الإطلاق.. قرأت ذات مرة أنه في حالة استمرار علاقة بصديقك لأكثر من سبع سنوات.. فهذا يعني أن صداقتكما ستستمر إلى الأبد.. وأنا وعادل أضعنا سنوات عدة في الكلية مع الشغل والنفاذ.. وكانت أمتع سنواتي في الجامعة هي السنوات الثلاثة الأولى.. بعدها رسبت أول مرة.

تغيرت دفعتي وتغيرت اهتماماتي واصطدمت بمعارف وناس جدد.

كنت أشعر أنني سأظل في الكلية حتى يقال لي يا «عمو»!.. واكتشفت أن السبب الحقيقي وراء حبي للجامعة عموماً وتلك الفتره بالتحديد هو «الصحبة الحلوة».. رصيدي الفعلي الذي هوّن علي الطريق.. وأشعرني أخيراً أنني لم أكن أواجه كل هذا بمفردي.. كعادل مثلاً، الذي استغرق معي سنوات كي يدرك أنه لابد أن يذاكر كي ينجح، وحتى الآن لا أدري كيف نجونا..

وماذا كنا نكتب في الامتحانات كي ننجح.

أحياناً أشعر أنها كانت درجات الرأفة، والتي جعلتهم يدركون أننا كنا نحمل نية طيبة لكننا لا نستطيع أن نعبر عنها بشكل واضح يخدم المادة العلمية.. أم أقول أنها كانت دعوات الأمهات، أم معجزات السماء أم كل هذا معاً.. لن أعرف أبداً.

كان عادل من فئة الأصدقاء «أولاد الناس الكويسين»، وكان يغني.. كنا نقول عنه «صوته بيلمع زي الدهب».. وقد تعرفنا في البداية من أجل كتابة بعض الأغاني.. ثم نسيت تماماً أنه يغني وبقيت أذكر أنه صديقي.

كان مثل أخ قديم لي.. يدخل بيتي ويأكل معي وتحبه أمي مثلي تماماً.. ودود وبسيط وأرى فيه نفسي كما أحب أن أراها.. يظننا البعض«Package » لا تأتي إلا مجتمعة.. أشعر دائماً أنه يشبهني رغم أن طباعنا متختلفة تماماً.. فهو بطيء للغاية.. دائم الضحك، دائماً على عكسي.. اجتماعي بدرجة امتياز.. كما أن أجمل صفاته كانت كونه نفسه لا يدري كم هو صديق رائع، ولكن ما جعله صديقي.. وما جعلني اعتبرته صديق عمري.. هو أنه كان دائماً في الجوار عندما احتجت إليه.

* * *

٧ - بداية الرحلة الحقيقية

«فـ أول يوم في إعدادي.. مكانش ساعتها
فيك لمعة.. وشكلك منتهى العادي»

ديوان فلومساتر أبيض / يناير ٢٠١٤

تواصل عزفي المنفرد على بيانو الأيام المملة.. وتواصلت وحدتي.. ما أصعب أن يحبك الجميع لكن.. لا يرى فيك أحد «كل ما يملك».. لست سوى خيارات ثانوية في حياة الآخرين.

أحياناً تشعر أنك مثل البطاطس المقلية.. طعام مفضل للجميع.. جميعهم يحبونك، لكنك لست وجبتهم الأساسية.. ربما يكون ذلك أفضل من ألا يحبك أحد.. لكنه هو بالطبع غير كاف ليمنحك إحساس التواجد.. مساحتك من الراحة النفسية والاطمئنان أنك مهم وأساسي من حياة أحدهم.

في فترة المراهقة.. فترة الخيال الخصب والتأمل.. فترة أحلام اليقظة وطموحات المستقبل.. فترة «انت

مبقتش صغير»، فتحاسب على كل أخطائك.. وفي نفس الوقت هي أيضاً فترة «انت هتعمل راجل؟!».. فلا يكون لديك صلاحية الاختيار والتحكم في قراراتك الشخصية بالقدر الكافي..

من الممكن أن تحصل على صداقات أفضل.. وأقوى.. لكن لن تجد أبداً مثل هؤلاء «تحويشة العمر».. كبرت معهم.. انطلقتم.. وتشكلتم.. جمعتكم المشاكل «والخناقات».. وليالي التسكع الطويلة.. و«ماتشات البلايستيشن».. وإصابات الملاعب.. الجلوس على الأرصفة والسهر جوار أكشاك السجائر.. أو على المقاهي الليلية في الشتاء، حيث الونس والدفء الإنساني الذي يجعلك تشعر بإقبال على الحياة.

تلك الحياة البسيطة الممتعة.. بكل ما فيها من «تزويغ الدروس.. والهروب من الالتزامات البسيطة.. كتابة الأسماء في دفاتر الغياب.. واستدعاءات أولياء الأمور. (الشلة) المكونة من ٧ أو ٨ أشخاص، رايحين جايين مع بعض.. طلعات اسكندرية وأيام المصيف».. وتلك السهرات التي قضيناها ونحن نلعب ألعاب الأوراق المشهورة والتي تنتهي دوماً بمشاجرات ساذجة يتخللها ضحك طويل، ثم أدوار من الشاي والوجبات الخفيفة..

ألعاب «ليدو وبنك الحظ».. جمل تثير فيك التفاؤل والمحبة للحياة بكل ما فيها مثل:

«رزقت بمولود جديد.. ادفع خمسين جنيه لكل لاعب»

أو «حماتك تحبك، أرسلت لك ١٠٠ جنيه حوالة، اذهب إلى البحرين لتقبضها»

وكل هذه السنوات الجميلة من البراءة اللانهائية..

قضيت جزءً طويلاً من حياتي في بناء «الجراچات» والاستراحات، وجمع أموال الإيجارات في ألعاب الأوراق.. كانت أوقاتاً لا تنسى.. وأياماً لن تتكرر.

ما كان يكدر علي صفو هذه الأيام هو ذلك الإحساس الليلي الطويل بالوحدة والحاجة إلى صديق.. فقد أحسست أن هذه الأيام مرت، تلك الفترة بكاملها مرت دون أن أحصل على صديق حقيقي قبل دخول الجامعة.

الصداقة.. تلك العلاقة التي تجد نفسك فيها «جدع» و«أمين ع السر» و«ترد الغيبة» و«تسلف فلوس».. تجد نفسك فخوراً وسعيداً أنك بـ «تقسم رغيف» و«بتتخانق» و«بتتصرف عشان شخص مش أخوك.. ومش قريبك ومش جارك».. هو فقط صديقك.

صديقك الذي تشعر أنه أنت.. ولكن في جسد آخر..

مرآتك التي ترى فيها نفسك كما هي.. توأم روحك.. وجعبة أسرارك.. وطبيبك النفسي أحياناً كثيرة..

الأزمات النفسية كانت هينة وبسيطة عند وجود صديق حقيقي.. فقط يسأل «مالك» فتقول ما تريد أن تقوله.. وتنتهي الأزمة بحل أو بحلول أو حتى بدعابات وضحك.

تفاصيل «العشرة والعيش والملح» و«الجدعنة»، والمواقف التي دائماً ما تثبت لك أنك «اخترت صح».. وأنك محظوظ كونك تمتلك صديقاً لم يتغير طوال هذه السنوات..

تلك الصداقة المريحة نفسياً.. التي لم يضعفها العتاب المستمر ولا المشاكل الصغيرة التي كان بإمكاننا التغافل عنها..

تلك الصداقة التي كان فيها الود موصول والبيت مفتوح.. والأم أم لك ولصديقك.. والعكس.

يأكل ويشرب وينام في بيتك كأنه بيته.. كأنها تربي فيه منذ الصغر، لا يتعامل مطلقاً على أنه ضيف،

فهو يعلم أنه «أكثر من أخ» و«صاحب بيت».

تلك الصداقة التي لا تتأثر بالمسافة، حين يسافر أحدكم ليعمل بالخارج.. أو تلك المسافة النفسية التي تفرض

عليكما بفعل الحياة وباعتبار أن «الدنيا تلاهي»، وكل منكما مشغول بتكوين نفسه ورسم مستقبله.

تلك الصداقة التي تعرف فيها كيف تسمع صديقك دون أن تختم جلسة استماعك إليه بكلمة «معلش»، أو تحاول أن تقاطعه في الكلام بحلول هو لا يبحث عنها.. فأحياناً يكون كل المطلوب منك هو أن تستمع فقط.

تلك الصداقة التي تجد فيها ملابسك في خزانته.. وتجد في يديك علامة من «هزار ثقيل» بالأمس.. تلك العلاقة التي لا تجد نفسك فيها مضطراً أن تتصرف عكس طبيعتك.. بإمكانك أن تكون تافهاً أو غبياً أو سخيفاً.. بمنتهى البساطة أنت أمام صديقك، فلا داعي لأن تتنكر.

تلك الصداقة التي قال فيها أبو بكر الصديق: «شرب رسول الله حتى ارتويت».

الصداقة بمعناها الحقيقي.. بدفء تفاصيلها الصغيرة.. وروعة ما فيها من تكامل بين شخصين مختلفين.. صلة قرابتهما الوحيدة والكافية أنهما «أصدقاء»

* * *

٨ - (نهاية رحلة البحث)
فتّش عن المرأة

بعد وقت طويل وعمر من البحث والتنقيب.. وجدت أن الصديق الذي أبحث عنه لا بد أن يكون صديقاً لا نهائياً.. أو كما يقولون في أفلام «سندريلا؛ ever after».. وهنا كان لابد من وجود ذلك الكيان العظيم الرائع والمخيف والملهم.

الأنثى.

يقول نزار قباني:

«قرأت كتاب الأنوثة حرفاً حرفاً، ولا زلت
أجهل ماذا يدور برأس النساء».

تخيل أن هذا ما يقوله شاعر المرأة عنها!.. وهو الذي وصفها بكل ما يمكن أن توصف به.. قال عنها مرة: «أيتها الشفافة اللماحة العادية الجميلة.. أيتها الشهية البهية الدائمة الطفولة».

ومرة ثانية:

«وغطيني أيا سقفاً من الأزهار.. يا غابات حناء.. أنا رجلٌ بلا قدرٍ فكوني أنتِ لي قدري»

تكلّم عنها وتكلم بلسانها.. ولعل أصدق ما كتب على لسانها في الحنين:

«رباه!.. أشياؤه الصغرى
تعذبني فكيف أنجو من الأشياء

رباه؟!

هنا جريدتُه في الركن مهملة، هنا

كتاب معاً.. كنا قرأناه،

على المقاعد بعض من سجائره،

وفي الزوايا.. بقايا من بقاياه..

ما لي أحدق في المرآة.. أسألها

بأي ثوب من الأثواب ألقاه؟

أأدعي أنني أصبحت أكرهه؟

وكيف أكره من في الجفن سكناه؟

وكيف أهرب منه؟ إنه قدري، هل

يملك النهر تغييراً لمجراه؟

أحبه لست أدري ما أحب به،

حتى خطاياه ما عادت خطاياه!»

ذلك الرجل الذي قالت له ابنته: «لقد أفسدت حياتي، فكلما قارنت رجلاً بك سقط من نظري»

تخيّل كل هذا الكم من «المرأة» في حياة هذا الرجل، ولم يستطع أن يفهمها.. لعل المرأة ليست بالأحرى لغزاً ليس له حل.. أو أحجية فرعونية قديمة مرتبطة بلعنة ما.

المرأة هي المرأة

«النساء.. ماذا عساك أن تقول.. ما أعظم الله!..»

حواء بشكل أو بآخر.. الأم التي تحترق بكامل إرادتها وهي في غاية السعادة.. من أجل أن تضيء لك الطريق.. التي تشبع فقط عندما تأكل أنت.. ولا تستريح إلا عندما تراك نائماً.. كتلة الدفء.. الكوكب الصغير.. تراها في المنزل فترى المنزل فيها.. الوطن الأكبر.. والمساحة الصغيرة التي نختبئ بها من فواجع الأيام.. أمي (الشمس) التي تدور حولها كواكبي.. أمي هي أصل كل شيء حقيقي بداخلي.. هي «الصدق» الذي تعلمته عندما قالت لي أن الكذب سيجعل الله غاضباً مني.. فجعلتني أخشى غضب الله قبل أن أخشى عذابه.. أن أحبه قبل أن أطمع في جنته، أن أراه في دعائها الدائم «يا رب سترك ورضاك».. أن أدرك كيف لرحمته أن تسع كل شيء.. فإذا كانت أمي بكل هذه الرحمة.. فكيف برحمته هو؟

علمتني أمي الطمع في كرمه والإلحاح في دعائه.. أن أراه في رضاها.

دخلت غرفتي ذات مرة فوجدتني مستاءاً حين تفوق عليّ أحدهم.. فقالت لي: «زي ما بدعيلك هو ليه أم بتدعيله برضو من حقها تفرح بيه»

كانت ولازالت وستظل دائماً «جميلة»، نقية كأنها أحد أنهار الجنة.. فلولا أمي.. ما كنت أكتب ما أكتب..

الامتنان وحده لا يكفي.. فالشكر يعجز.. والكلام يتضاءل.. والمصطلحات التعبيرية الوافية.. تبدو صغيرة جداً.. فالأم هي الأم فقط لا غير.

ثم الأم الثانية: الأخت

هل تدرك معنى أن يكون لك أخت؟!

إن كانت كبرى.. أبشر فلديك أم ثانية

وإن كانت صغرى.. فأبشر أيضاً فقد أنجبت طفلة.

تتأرجح الأخت بين الأم والابنة.. فهي الصديقة الأولى.. والشريكة الدائمة.

حب خالص غير مشروط بشيء.. تجدها تطيب خاطرك حين تتكوم الدنيا فوق صدرك.. وتقف بجانبك حينما لا يفعل الآخرون.. تضع نصيبك من الطعام على جنب إذا تأخرت في العمل.. وتدعو أن يرزقك الله «ببنت الحلال» التي تطمئن عليك معها.. ترى فيك السند الذي لا يزول.. والأمان الذي لا ينتهي.. ترى فيك الأب اللين والابن المحب والصديق الذي يعرف كيف يسمع جيداً.. والضحوك الذي دائماً ما يبدأ «الهزار» بأن تضحكا سوياً، وينتهي بأن تبكي وحيدة.. لمجرد أنك كالعادة «يدك ثقيلة»، لا ترهقكما خلافات «المرتبطين»، ولا يفرقكما انفصال تختاروه.. لا تربطكما سوى الحياة ولا يفرقكما

سوى الموت.. حتى الموت فهو مجرد فراق مؤقت، فهي بكل حال من الأحوال أختك في جميع الحيوات.

يا الله!

ما أعظم المرأة.. كيف كنا لنصبح من دون كل هذا الود؟!.. كيف للشمس أن تشرق دون أن تجد أماً تدعو.. وزوجة تصلي.. وجدة ترجو وتبتهل وتسبح؟.. كيف للحياة أن تستمر دون أن يجد الرجل من تقول له: «خلي بالك من نفسك» أو «ربنا يستر طريقك ويوقفلك ولاد الحلال»؟! كانت جدتي لأمي دائماً ما تقولها بتلك الطريقة في كل مرة كنت أرى فيها خالي مسافراً.. لم ولن أنسى أبداً تعابير وجهها الحنون.. وحزنها الدفين الذي يتجدد دائماً بمجرد سفر خالي.

يقال أن جدتي توفيت حزناً.. لأن خالي كان معتاداً أن يفطر معها في أول أيام رمضان.. توفيت حزناً لأنها انتظرت ولم يأت!..

كنت في إحدى الصيدليات بجوار منزلي.. حين رأيت «أم دعاء»،.. كانت جارتنا منذ ولادتي.. وصديقة العائلة.. تعتبر إحدى «الأرشيفات» التي سجلت جزءاً مهما من حياة عائلتي..نظَرَت إليّ للحظة.. لم تعرفني في البداية.. ثم ابتسمتُ لها فأدركت أني «محمد»، ذلك الطفل

الصغير الذي كانت تحمله منذ أن كان «في اللفة».. ولكن الآن تغير كل شيء إلا ابتسامتي..

نظرَت إلي وقالت: «دايماً ضحكتك تقفل عنيك».. تبادلنا الحديث قليلاً.. ثم لا أدري ماذا أخذنا إلى ليلة وفاة جدتي.. وقالت؛ في ذلك اليوم مرّت بوعكة وقررَت الذهاب مع خالتي للمستشفى لتطمئن على نفسها ليس إلا.

قالت بصوت تملؤه الدهشة: «دي كانت رايحة المستشفى على رجليها».. ثم أخبرتني أنه جاءها نبأ وفاة جدتي فجر اليوم التالي.

الحزن قاتل.. من قال أن الموت مرة واحدة.. أنا يقتلني الحزن يومياً.. ويقتلني الانتظار دائماً..

لا تتركوا أحباءكم للانتظار.. فقد تعودوا لتجدوهم كأوراق الخريف.. أو تجدوا غيركم يملأ أماكنكم..

لا شيء يقتل السعادة مثل الانتظار.. تخيل أن أحد أشهر الأمثال الشعبية يقول: «وقوع البلاء ولا انتظاره»؟!

السلامات الحارة.. الأحضان الطويلة.. الأغاني التي تنتقل بالزمن.. الذكريات التي لا تمحى أبداً.

أشبعوا أنفسكم من تلك التفاصيل الصغيرة.. لا أحد يعلم متى ستكون لديه القدرة على تكرارها

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1]

بدأ آدم حياته وحيداً.. فخلق الله من ضلعه حواء.. لتكون شريكة حياته.. وحبيبته.. ومؤنسته في وحشة الدنيا.. لا أعرف هل هذا صحيح أم ماذا، ولكن أنا أعتقد أن الله اختص المرأة بقدرتها على احتواء الرجل أيما كان.

خسر كثيراً من لم يحب حقاً.. وخسر أكثر من لم يتزوج من يحب.

أنا على يقين تام أن شراكة الحياة لا تحتاج إلى الحب فقط.. ولكن شراكة حياة بدون حب.. قد تتنتج عنها حياة مستقرة وناجحة.. لكنها دائماً ما ستكون كبيت خاوٍ في الشتاء.. ينقصها الكثير من الدفء والضوء والمحبة. وأتحدث هنا عن الحب الحقيقي.. ليس الارتباط والتعلق.. أتحدث عن حب المسئولية والتواجد والمشاركة والإخلاص والبذل والعطاء. لا عن الرغبة وإشباع غريزة أن تكون محبوباً من الجنس الآخر ليس إلا.

لم أسمع أبي أبداً يقول لأمي كلمة «أحبك»، لكني رأيت اسمها على هاتفه «عمري»، ورأيت حبه لها في

---

[1] [الروم: ٢١].

كل تصرفاته. فقد كان دائماً يفعل ما لا يستطيع التعبير عنه بالقول.

تحكي لي أمي حين سألتها عن قصة «عمري».. أنهما اشتريا حلوى، وكانوا في الماضي يكتبون جملاً على ورق الحلوى.. فتصادف أنهما وجدا في الورقتين كلمة واحدة وهي «انت عمري»

حينها أخذت أمي الورقتين وطوتهما ووضعتهما في سلسلتها حتى الآن.

الحب هو أكبر نعمة في الحياة.. لا أعتقد أنه ثمة طعم للحياة بدون حب حقيقي.. حب تملؤه اللهفة والحرارة والأمان..

حب قد يؤلم أحياناً لكنه لابد أن يداوي أحياناً أخرى. أن يطلب منك الممكن فتفعل المستحيل.. أن تبحر دون أن تعرف إلى أين المسير.. وأن تقبل ما لم تكن لتقبل به في ظروف أخرى.. وأن تتحمل ما لم تكن تعرف أنك ستستطيع أن تتحمله يوماً..

ذلك الإحساس الذي يجعلك بكل رضا تتنازل عن أشياء لم تكن أبداً لتتنازل عنها.. وتضحي بالكثير دون انتظار أي مقابل..الزواج مشروع كبير وضخم يحتاج للحب نعم.. لكن ليس الحب وحده ما يحتاجه، إنما يحتاج

أيضاً للتفاهم.. وللتغافل عن مستصغر الشرر.

يحتاج من الرجل أن يجعل زوجته تطمئن.. ويحتاج من المرأة أن تجعل زوجها يعيش في سلام نفسي.

الشك قاتل.. فالثقة أساس كل علاقة ناجحة.

والملل أيضاً قاتل.. لا بأس بتغيير ديكور تلك الأيام الرتيبة من حين لآخر.

ولكن أكثر ما يبدأ بإنهاء الزيجات.. هو أن يعرف سركما شخص ثالث..

ألم تلاحظ دائماً «تلك الدعوة».. التي يقال فيها للعروسين «ربنا يهدي سركم».. ألم تستوعب أن الزواج سر.. يجب أن يظل بينكما.. بينكما فقط.

أعلم جيداً أنه قد يتدخل أحد لأسباب شبه قهرية، ولكن في النهاية إذا أردت زواجاً ناجحاً.. عليك أن تغلق بابك في وجه كل من يتدخل بأي صفة كانت في حياتك الزوجية وقراراتك اليومية.. فهل تظن أنه يوجد أي إنسان يشعر بما تشعر به أنت وزوجتك تجاه بعضكما حتى يمكنه أن يتدخل في أي أمر من أموركما؟

حين سُئل أرسطو.. أيتزوج المرء أم لا.. أجاب قائلاً:

«أيهما فعل فسيندم»

ولذلك من المحبب دائماً أن تندم على فعل شيء بدلاً

من أن تندم على عدم فعله.. خاصة إن كان هذا الشيء هو أمر رائع مثل الزواج.

* * *

الفصل الثاني
العظماء السبعة

في الحياة لا شيء مجاني.. كل ما تستمتع به تدفع ثمنه.. عليك الآن أن تخرج من عنق الزجاجة.. أن تنطلق كالسهم في مسار محدد.. لا تبدأ من الغد، ابدأ الآن.. من هنا، من حيث بدأت رحلة العودة.

هل شاهدت فيلم العظماء السبعة؟!..

سواء شاهدته أم لا.. دعني أعرفك على أعظم سبعة تحولات في حياة أشخاص رأيتها في حياتي، من تحت أنقاض الحياة.. إلى الأوليمبس (السماء).

١- البرغوث

هل سبق لك أن شاهدت حلقات الكابتن ماجد؟!

ذلك اللاعب الفذ.. صاحب الرقم ١٠.. الذي كلما امتلك الكرة كلما أحاط به اللاعبون من كل جانب.. صاحب الحلول غير المتوقعة والتسديدات الصاروخية.. صاحب الحلم والشغف والإرادة..

إذا أردت أن تشاهد النموذج الواقعي من ذلك المسلسل ليس عليك سوى مشاهدة اللاعب «ليونيل ميسي».

ولد ميسي في مدينة روزاريو بالأرجنتين.

في كل الحكايات.. لا يوجد بطل من دون غريم.. لا يوجد كابتن ماجد من دون كابتن بسام.. وكذلك لا يوجد ميسي من دون رونالدو.

ذلك الصراع الذي امتد لمدة ١٠ سنوات كاملة.

صراع الموهبة الفذة من ناحية.. والاجتهاد والمثابرة من ناحية أخرى.

عندما سئل اللاعب «زلاتان إبراهيموفيتش» عن أفضل لاعب في العالم قال ميسي.. وبرر ذلك قائلاً؛ ميسي موهبة طبيعية.. بينما رونالدو طور مستواه نتيجة جهد مستمر.

لا يوجد بطل من فراغ.. ولن يولد شخص عظيم في عالم مرفه.. لابد دائماً من المعاناة.. المعاناة لا تصنع الأبطال فحسب.. بل تجعل منهم أساطير خالدة وقصصاً

ملهمة لا تنسى.

وراء كل عظيم امرأة.. وأول امرأة عظيمة كانت في حياة ميسي كانت جدته..

جدته التي لم تستطع الانتظار حتى يكمل ليونيل عامه الرابع، إلا وكانت قد أخذته ليلعب كرة القدم.

كان ميسي هو الأصغر بين أشقائه.. «رودريجو» و«ماتياس».. وكان على ميسي أن ينتظر عامين آخرين ليلتحق بهما في الفريق الأساسي.

كان رودريجو شقيق ميسي لاعباً مميزاً جداً، مما جعل ميسي حريصاً على أن يذهب بصحبة جدته لمشاهدة المباريات التي يخوضها رودريجو.. شخص واحد مؤمن بك قادر على أن يخرج منك أفضل ما فيك.. فقد كان إيمان تلك السيدة البسيطة بحفيدها كفيلاً بأن يجعله من أعظم لاعبي كرة القدم في تاريخها كله.

كانت تقول له: «ستصبح أفضل منهما.. أتدرك لماذا؟!.. لأنه لا أحد يعرف كيف تفكر.. ذلك الرأس الصغير يملك سراً.. اسمعني جيداً؛ ستصبح أفضل لاعب في العالم».

كان ميسي يلعب في فريق الحي، فريق «غراندولي».

وفي إحدى المرات التي كان يذهب فيها ميسي لمشاهدة رودريجو.. حصلت المصادفة التي لطالما انتظرها.. وتأخر أحد اللاعبين عن الحضور ولم يكن بوسع المدرب أن ينتظر أكثر من ذلك.

كان ميسي يراقب ما يدور بقلب شغوف ويتمنى فقط أن تحدث معجزة.. وهنا سأل ميسي جدته هل أستطيع اللعب معهم؟!.. فأجابته هل تريد اللعب؟.. فهزّ ميسي رأسه مجيباً، نعم بكل تأكيد.

على الفور أشارت جدته إلى المدرب سائلة:

- هل بإمكان حفيدي أن يلعب معهم؟

فأجابها:

- هل حقاً يستطيع اللعب؟!

- نعم هو جيد جداً.

في البداية كذبت جدته بشأن عمره.. وقالت للمدرب أنه سريع للغاية، في محاولة منها لإقناعه. لم يبد عليه الاقتناع فنظر لليو، وسأله: «أيها الصغير، ماذا تستطيع أن تفعل؟!».. فأجابه ميسي:

- كل شيء.

كان قصيراً للغاية، وجسده ضعيف، ولم يؤمن به أحد في البداية مطلقاً.

ولكن ذلك المدرب لم يكن يعلم أنه سيكون شاهداً على بداية T.A.O.G.. أو كما يقولون:

(times all of Greatest) - الأعظم على مر العصور.

كان أصغر من زملائه في الفريق بعامين كاملين.

دخل الملعب وكان كل شيء رائع.. بدأت المباراة، وأخذ ميسي الكرة وأخذ يراوغ الجميع، وسجل وأدهش الحضور مما جعل المدرب يطلب من جدته أن تحضره للتدريبات لينضم للفريق.

كان «ليو» مهووساً بكرة القدم.. كان عندما لا يمتلك كرة يلعب بها، يلعب بقنينة بلاستيكية.. أو يصنع من الورق كرة دائرية تنفك غالباً في نهاية كل تسديدة.

حتى عندما كانت تفيض مجاري الحي بالمياه.. لم يكن ذلك يمنعه من اللعب.. وكان الفريق الذي يختاره «ليو» يفوز دائماً.. كان الكفة الراجحة باستمرار.

كان من المتعارف عليه أحياناً في بعض البطولات.. حين يفوز فريق، يحصل لاعبوه على إحدى عشرة دراجة..وأثناء إحدى المباريات.. انغلق باب الحمام على ذلك الصغير، ولم يستطع الخروج إلا بعد مضي الكثير من الوقت، وذلك عن طريق شباك الحمام.

كان موقفاً درامياً كأفلام السنيما.. ذهب إلى الملعب ليجد زملاءه متأخرين بالنتيجة (٠/٢)، ومن ثم دخل ميسي إلى أرضية الميدان واستطاع إحراز ٣ أهداف فقط في عشرين دقيقة.

أكمل عامه التاسع وقد كان هشاً للغاية ضئيل الحجم، مما جعلهم يذهبون به إلى الطبيب.. وبعد الفحوصات تبين أن ميسي لديه مشاكل في هرومونات النمو.. لديه نقص في الهرمون المسئول عن نموه بشكل طبيعي.. كان هنالك بعض الحقن التي تشبه القلم كتلك التي يستخدمها مرضى السكر.. ظل يستخدمها ميسي «جرعة واحدة كل يوم». كانت تكلفة الحقن أكبر من أن تتحملها العائلة.. فقد حاول الطبيب في البداية أن يضعها على نفقة التأمين.

قال ميسي للطبيب في قلق شديد: «هل سأستطيع لعب كرة القدم؟!»

أجابه الطبيب ضاحكاً: «لا تقلق، ستلعب وستصبح أكبر حجماً من مارادونا»

عندما كان يذهب ميسي ليقيم في منزل أحد، كان عليه أن يأخذ الحقن معه.. كان يرش لنفسه المخدر، كان شجاعاً للغاية.. والدته قالت أنه تعلم الاعتماد على نفسه في رحلاته المدرسية.. العلاج الذي يأخذه لم يكن سراً

فالجميع كان يعرف.

لم يقتصر حبه لكرة القدم في الواقع فقط.. فقد كان عاشقاً لألعاب الفيديو.. كانت حينها اللعبة الشائعة هي (FIFA ٩٥).. وكان يلعب ببرشلونة في تلك الفترة التي لعب فيها ريفالدو وكوليفرت، وكذلك فرانك ديبور. وأثناء ما كان ميسي يلعب.. تعرف على «أنتونيلا»، زوجته الحالية وحب حياته، قدمها له أحد أصدقائه قائلاً: «أنتونيلا ابنة عمتي، وتسكن في الأعلى».

كان عمره حينها ١١ عاماً فقط.

في أكتوبر ٩٩ أتى «خورخي» والد ميسي ليشاهده يلعب في إحدى المباريات، ثم قال للمدرب: «تمتع به لأني سآخذه بعد شهرين».. تفاقمت المشاكل مع التأمين ولم يعد بوسع عائلة ميسي أن تدفع ثمن العلاج، ذهب والده لكل الأندية على أمل أن يجد من يتحمل تلك التكاليف.. ولكن لا حياة لمن تنادي.. وحده نادي برشلونة كان من فتح قلبه قبل أن يفتح بابه لذلك العبقري الصغير.

في ذلك العام أتى رجل من برشلونة ليأخذ كل من ميسي ووالده لينتقلا للعيش في إسبانيا.. كان على ميسي أن يودع الجميع.. الحي البسيط والأصدقاء والمباني نفسها.. كانت لحظات مليئة بالمشاعر، بكى الجميع بمن

فيهم هو.

بعدها بقليل من الوقت لحقت بهم العائلة وبدأ المشوار في «كاتالونيا».

يقول «جيرارد بيكيه» زميل ميسي في فريق برشلونة:

- عندما وصل وتعرفت عليه بعمر ال ١٣ عاماً كان صعباً جداً في الأيام الأولى.. كان يجلس وحيداً دائماً في غرفة الملابس.

تعقدت الأمور في البداية بعض الشيء، فقد ظل ميسي في برشلونة أربعة أشهر كاملة دون أن يوقع العقد.. صحيح أنه كان يتدرب يومياً مع الفريق لكن لم يكن يشارك في المباريات.

كانت الحياة صعبة للغاية.. والد ميسي أنهى عمله في روزاريو.. ماريا أخته لا تستطيع تعلم الكتالونية، وخسرت سنة من سنوات تعليمها المنتظمة.. وكذلك ماتياس، كان يشعر باليأس لأنه يفتقد صديقته.. كل شيء على وشك الانهيار، إن لم يكن قد انهار فعلاً.

عادت العائلة إلى الأرجنتين، واستمرت أزمة العقد.. بعض المسئولين في برشلونة لم يوافقوا على بنود العقد، نظراً لتكاليف العلاج الباهظة.. ثم شارك ميسي في أولى

مباريات الصغار، والتي انتهت ١/١٤.. سجل ميسي حينها ٣ أو ٤ أهداف.. وفي ثاني مباراة له كسرت قدمه.. وحملوه إلى خارج الملعب.. بعد ذلك قال الطبيب ليس عليه أن يأتي للتدريبات، فهو يحتاج إلى الراحة.

كان يفتقر ميسي إلى اللياقة والسرعة في بداية الأمر، ولكن بعد ذلك تحسنت الأمور كثيراً.. تطوراته كانت هائلة.. أخذ يطور من نفسه ومن لياقته.. وفي إحدى المباريات ضربه أحدهم بالكوع، فكسرت عظمة وجنته.. فأخذ يبكي، ليس من الألم لكن ظناً منه أنه لن يستطيع لعب نهائي كأس كاتالونيا.

ارتدى ميسي قناعاً لكي يحمي وجهه، وبعد مضي الدقائق، ومع شدة التعرق اضطر ميسي لخلع القناع وأكمل المباراة من دون القناع، وفاز في النهاية.

لعب ميسي في (B Barca - الفريق الثاني).. وكان الفريق الأول حينها تحت قيادة الهولندي فرانك ريكارد.. وكان من المحتمل أن يستدعي بعض اللاعبين من الفريق الثاني لإحدى المباريات الودية ضد نادي بورتو البرتغالي.. ذهب ريكارد لمدرب الفريق الثاني وسأله من سيترشح فقال له:

- هناك لاعبون وهناك ميسي.

فقال ريكارد:

- ميسي؟!.. من ميسي؟!

كان فرانك ريكارد مدرباً مؤمناً بالشباب، وقد سبق له بالفعل تقديم البعض مثل «انيستا»، وبالفعل تم تصعيد ميسي إلى الفريق الأول.. اتصل بالعائلة في الأرجنتين وأخبرهم أن ظهوره الأول مع الفريق سيكون يوم الأربعاء القادم.. لم يسجل يومها لكن سارت الأمور على ما يرام.

ليس سهلاً أبداً أن تتواجد بغرفة ملابس نادي بحجم برشلونة بعمر ١٦ سنة.. ولكن اللاعبون سهلوا عليه الأمور كثيراً، فالجميع احتواه خصوصاً رونالدينو.. كان لا يشترك كثيراً، فريكارد كان صبوراً وجعل مشوار «ليو» في مساره الصحيح..

كان ميسي قريباً من رونالدينيو الذي كان حينها أفضل لاعب في العالم.. حتى أن أول أهداف ميسي بقميص البلوجرانا (نسبة إلى ألوان قميص الفريق الأحمر والأزرق) كانت صناعة الساحر البرازيلي رونالدينو.. وقتها ذهب روني ليحتفل معه.. ثم حمل ميسي فوق ظهره في مشهد لا ينسى في خلفيته تجد كل من على مقاعد البدلاء يحتفل بهذا الرائع الصغير.

يقول ميسي: «كان رونالدينو يعلمني في التدريبات كل يوم حركة.. ثم يأتي في اليوم الذي يليه لمشاهدة ما تعلمت».. كان ميسي يلعب كل مباراة وكأنه سيحصل في النهاية على دراجة هوائية.

بدأ نجم ميسي في الظهور في مباراة كأس «خوان جامبر» ضد السيدة العجوز نادي «اليوفينتوس» الإيطالي.. كان نادي اليوفينتوس تحت قيادة المدرب العبقري فابيو كابيلو الذي قال عن ميسي بعد المباراة: «لم أر أبداً لاعباً بجودته في نفس عمره»

حتى أن كابيلو أثناء سير المباراة قال لفرانك ريكارد: «هل بإمكاني أخذه؟!».. ليجيب ريكارد «بالطبع لا».

يقول ريكارد عن ميسي في تلك المباراة: «لقد كان رائعاً حتى أن جماهير الكامب نو كانت تصفق له، وكانت أول مرة يهتف فيها الجمهور الكتالوني ميسي ميسي»

إلى أن أتت واحدة من أهم اللحظات في تاريخ ميسي.. مباراة الكلاسيكو برشلونة وريال مدريد.. سجل حينها ميسي هاتريك، وهو أمرٌ لو تعلمون عظيم.. وانتهت المباراة بالتعادل، حتى أن عناوين الصحافة جاءت في اليوم التالي: «ميسي يتعادل مع ريال مدريد»

تغيرت أمور كثيرة بعد ذلك.. رحل فرانك ريكارد

ورحل رونالدينيو.. احتضن خوان لابورتا رئيس النادي رونالدينيو قائلاً: «انتهى ذلك التاريخ»، ثم بكى كل منهما. وانتهت قصة الساحر مع البلوجرانا، بعدها اتصل لابورتا بخورخي والد ميسي وحدّث ميسي وقال له: «ليو أنت الآن القائد».. وانتقل رقم ١٠ من روني إلى ميسي.. من ساحر إلى ساحر آخر، وبدأت مسيرة أولها طفل صغير وآخرها أعظم لاعب في العالم.

لا يفارق ذهني مشهدان؛ الأول لطفل صغير اسمه ميسي يقول: «أعلم أني لو تدربت جيداً سأحصل على الكرة الذهبية»، والآخر لنفس اللاعب وهو يحمل ٥ كرات ذهبية خالدة في أذهان كل برشلوني حقيقي.. فقد أصبح ذلك الصغير أيقونة النادي وهدافه التاريخي.. رجل تغنت الجماهير باسمه وعلقت عليه أمانيها بدلاً من أشجار الميلاد.. ذلك الذي أسموه قديساً ودعوا له في صلواتهم: «king the save God».. فليحمي الله الملك.

ليس كل ملك عظيم.. ولكن كل عظيم ملك.

* * *

٢ - الهولندي الطائر

«لقب أطلق على ماركو فان باستن لاعب منتخب هولندا»

المثابرة.. تلك الاستمرارية التي لا تراجع عنها، ولا استسلام فيها.. الأمر كله متعلق بالطاقة.. وبقدرتك على أن تجد دائماً سبباً لفعل ما تفعله كل يوم.. أن تجعل الروتين القاتل جزء منك.. جزء لا تملّ منه أبداً، فقط لأنك ربطته بفعل ما تحب..

أنت تذهب للعمل في كل صباح.. وتقابل نفس الأشخاص، وتفعل نفس الأشياء.. تجد طاقتك تنفذ وتوشك أن تنهار، ويفسد كل شيء، ولكن أنت حتى لا تملك الرفاهية لفعل ذلك.. أنت مجبر على أن تستمر.. إن توقفت لن تنتهي حياتك أنت فحسب.. الأمر أصبح متعلقاً بحياة من تحب.. لديك ابنة تحتاج إلى قسط مصروفات المدرسة، وابن يحتاج لشراء دراجة.. وزوجة تتمنى لو أنها تحصل على فستان جديد.. تجد نفسك مهملاً رغباتك.. تنظر لكل ما تريد شراءه لنفسك في «الفتارين» وتقول لنفسك ليس الآن.. هم أولى.. والغريب أنك تفعل ذلك بصدر رحب وبرضاء تام.. بل تكاد تكون فرحتك الوحيدة في هذا العالم الضيق هو أن ترى السعادة في

أعين من تحب حين تعود للبيت حاملاً أمانيهم البسيطة..

يقولون أن الأب هو ذلك الشخص الذي تطلب منه نجمة فيعود حاملاً السماء.. وأقول بأنه لو استطاع أن يأتي بالأرض أيضاً لأتى.. أنت لا تدري حقاً ما معنى أن تكون أباً.. أن تحمل كل تلك المسئوليات دون أن تجزع أو تشعر بالتعب.. أن تكون تلك الشمعة التي تحترق بمنتهى السعادة فقط لتضيء الطريق لمن تحب.. أن تتغلب على ذلك الروتين القاتل.. وتصارع للبقاء على قيد الفرح. هل صادف يوماً ووجدت جوهرة ملقاة في أكوام القش؟.. أو مدفونة في حديقتك الخلفية؟.. أو شاهدت منجماً للألماس في قرية صغيرة؟!.. ما نسبة حدوث ذلك.. لا أظن أنها كانت تتعدى الصفر بالمائة.

حتى ظهر «محمد صلاح».. تخيّل معي أن تستيقظ كل يوم لتضع قلبك الصغير بين أنياب أربع مواصلات داخلية فقط لتذهب إلى التمرين.. ثمان ساعات يومياً ذهاباً وعودة.. حفظت كل شبر في طريق «نجريج» القاهرة.. أشكال سائقي الميكروباص.. أصوات البائعين ورائحة الموقف.. الشمس الحارقة صباحاً.. ولسعات البرد ليلاً.. لا، أنا لا أخبرك أنه فعل ذلك لمدة أسبوع.. أو شهر أو سنة.. صلاح اعتاد فعل ذلك لمدة عشر سنوات.. هو نفسه

يقول:

- عشر سنوات من «كورة - نوم - كورة»

هو لا يرى سوى حلمه.. مفتون بأحلام اليقظة.. هو يعلم أنه سيكون.. هي مسألة وقت ليس إلا.. ومسألة تعب أيضاً.. أنت لست أمام فيلم سنيمائي هذه المرة.. ولست أمام إحدى ألعاب البلايستيشن وتقوم بتصنيع لاعب مصري جميع طاقاته ٩٩%.. أنت أمام الحياة والواقع والمحاولات المستمرة هذه المرة.. أنت أمام محمد صلاح.

ولد محمد صلاح في الخامس عشر من يونيو في عام ١٩٩٢، في قرية «نجريج» مركز بسيون، التابعة لمدينة طنطا بمحافظة الغربية.. أسرة بسيطة.. أب يعمل بالتجارة الحرة وأم رصيدها في الحياة أنها ربة منزل.

صدقني أنت لست أمام حدث اعتيادي.. أنت على وشك أن تقرأ الأمل نفسه.

في مشهد لم يحدث سوى مرة واحدة، وقد لا يتكرر أبداً، تجد الشمس تشرق من خلف ذلك الطفل الصغير الذي يرتدي «فانلة» منتخب هولندا حاملاً بيده كرة.. كرة كالتي تشتمُّ رائحتها بمجرد أن تراها.. تلك الكرة التي لم تعرف سوى الملاعب الترابية وأقدام الحُفاة.. كانت الكرة بسيطة كبساطة من يلعبون بها.. هنا الكرة من أجل

المتعة.. من أجل المتعة فقط.. في كرة القدم تجد السريع.. والمهاري.. والغشيم.. والزئبقي.. والقناص.. كان صلاح من النوع الأول.. تلك كانت قدرته الخاصة.. يوشك أن يطير.. فقد كان محمد صلاح الهولندي الطائر الجديد.

أول من آمن بمحمد صلاح كان الكابتن محمد الغامري.. كان مشرفاً على فريق الكرة بمركز شباب نجريج حين دفع بمحمد صلاح في إحدى المباريات، ومن ثم أحرز ٤ أهداف.

واحتفى به الجميع وكانت تلك الإشارة الأولى على موهبته الخارقة.

كان صلاح في التاسعة من عمره حين تلقى عرضه الأول من نادي بلدية المحلة.

لم يكن نادي بلدية المحلة نادياً صغيراً.. فقد كان من الأندية التي لها حضور في الدوري المصري الممتاز، وكان من الطبيعي لأي طفل بعمر محمد أن يحلم بارتداء فانلة هذا النادي.

ولكن حدث ما لم يكن متوقعاً.. ورفض محمد صلاح العرض إيماناً منه بأن هنالك شيء أجمل في الانتظار..

فضّل آن ذاك عرضاً بسيطاً من نادي بسيون، ولم يمض الكثير من الوقت حتى التحق بعثمانون طنطا..

نادي المقاولون العرب فرع طنطا.. وكانت تلك الشرارة الأولى في رحلته بالدوري المصري الممتاز فبعد فترة قطاع المواهب بالنادي أبلغ الإدارة في نادي المقاولون العرب أن هناك موهبة فريدة من نوعها لابد لها أن تلتحق بنادي المقاولين.

كان صلاح في هذه الفترة يتدرب في ملعب ترابي ملحق بملعب طنطا الرئيسي..

رفقة باسم مرسي.. مهاجم الزمالك.. هذا وقد بدأت رحلة الكفاح التي لم تنته حتى الآن، استمر محمد صلاح في الذهاب والعودة يومياً لمدة ٤ سنوات متتالية.. لم يعرف لنفسه طريقاً سوى طنطا / القاهرة ولم يجد لنفسه طعاماً سوى الكشري.

ظل الكشري هو طبق محمد صلاح المفضل وأول ما يبحث عنه بمجرد وصوله إلى مطار القاهرة.

تلك الأكلة المصرية البسيطة التي تناسب إمكانيات عائلة ذلك الطفل الصغير.. الذي لم يتمرد أبداً.. ولم يغضب على ذلك الطبق الوحيد طيلة تلك السنوات.. إنه الرضا الذي يتسلل بداخلك فيجعلك سعيداً بما لديك.. مدركاً قيمته مستمتعاً به.. قنوعاً بما تحصل عليه.. طامحاً في غدٍ أفضل.

والآن يحصد ما زرع، وتحصّل اللاعب على مكافأة قدرها ٣ آلاف جنيه بعد أن شارك لأول مرة في الدوري المصري الممتاز في ٣ مايو ٢٠١٠ ضد المنصورة.

إن الحظ لا يخدم الأغبياء.. سعيك الدائم هو ما يجعلك دائماً توجد في المكان المناسب.. وأعتقد أن سعيه المستمر جعل «شريف حبيب» رئيس نادي المقاولين وقتها يقوم بتخصيص مدرس لغة إنجليزية له، رغبة منه بتسويق اللاعب في الخارج.. وهنا يتدخل القدر، وتجمع مباراة بين نادي بازل السويسري ومنتخب مصر، تحت ٢٣ سنة. ويشارك محمد صلاح في الشوط الثاني ويحرز هدفين.

وبعد المباراة مباشرة تقدم بعرض معايشة لأسبوع لصلاح أتبعها بعقد لمدة ٤ أعوام في النادي السويسري العريق مقابل مليوني يورو..

ولفت الانتباه بشدة وحصد جائزة أفضل لاعب صاعد في أفريقيا عام ٢٠١٢، وأفضل لاعب في الدوري السويسري عام ٢٠١٣..

وهنا أتي دور «جوزيه مورينو» المدرب البرتغالي الشهير، أو كما يطلقون عليه The special one

أتت شهرة مورينيو حين حقق دوري أبطال أوروبا

مع نادي بورتو البرتغالي، وكانت تلك مفاجأة كبرى بالطبع. تجربة محمد صلاح مع نادي تشيلسي الإنجليزي لم تكن مميزة.. فقد كان معظم الوقت حبيس دكة الاحتياط.. البعض يُرجع ذلك لهيمنة جوزيه مورينيو على مفاتيح كل شيء في النادي اللندني.. فلم يكن البرتغالي مؤمناً بصلاح بالقدر الكافي، لدرجة أنه يقال أن البرتغالي قال لمحمد صلاح بعد إحدى المباريات.. «عليك أن تتعلم أن تلعب كرة القدم، لأن ما تفعله ليس له علاقة بكرة القدم على الإطلاق»، حينها ظن الكثيرون أنها نهاية الرحلة.. وأنه سيكون كأي لاعب مصري ذهب إلى أوروبا وعاد منها خالي الوفاض.. لكن ذلك هو أكثر ما يميز محمد صلاح.. عقليته الاحترافية التي جعلته يبدأ من جديد مع نادي فيورينتينا الإيطالي، ومن ثم مع ذئاب العاصمة الإيطالية روما.. أثبت جدارته بلا شك، وأصبح من أهم لاعبي الجناح في إيطاليا.. مما دفع نادي ليفربول للتعاقد معه في صفقة كان فيها محمد صلاح أغلى لاعب عربي في التاريخ حينها..

ظهر أثر المدرب الألماني «يورجن كلوب» على محمد صلاح سريعاً، فقد ساعده على التأقلم مع اللاعبين.. وأنشأ منظومة جماعية تقترب من الكمال.. استطاع محمد

صلاح أن يصبح أكثر لاعب يحرز عدداً من الأهداف في موسم واحد في الدوري الإنجليزي، بتسجيله ٣٢ هدفاً متفوقاً على «كريستيانو رونالدو» و«آلن شيرار» و«لويس سواريز».. وأصبح أسرع لاعب في تاريخ ليفربول يحرز ٤٠ هدفاً في الدوري الإنجليزي.

ورفع سقف طموح المصريين والعرب بمنافسته على جائزة أفضل لاعب في العالم.. والآن هو أحسن لاعب في الدوري الإنجليزي، والهداف وأحسن لاعب في إفريقيا.. وأعتقد أن كل ذلك ليس إلا مجرد بداية لمشوار ذلك الطائر المصري الذي كانت أكبر أحلامه يوماً ما هي أن يرتدي قميص المنتخب الهولندي.

* * *

٣ - سحر الكاريزما

ما أصعب ألا تتقبلك الحياة.. أن يراك الجميع مختلفاً.. فتتم معاملتك على أنك مسخ.. أو مادة للسخرية.. أو إحدى فقرات منتصف اليوم الترفيهية في المدرسة.. حين كنت في المرحلة الابتدائية.. كان لنا زميل يأتي للمدرسة من

عزبة تبعد عن القرية حوالي ٥ كيلو مترات مشياً.

يأتي يومياً على قدميه.. لا أدري هل اعتاد الأمر.. أم ظل متأزماً من هذا الطريق ذهاباً وعودة.. كان أسمر اللون.. شديد سواد العين والشعر.. أطلقنا عليه اسم «سمارة».. وكان أقرباؤه في العزبة ينادونه «اللوقش».. كان ودوداً مع الجميع على عكس معاملة الجميع معه.. فقد كانت لهجته ولونه ومستواه الدراسي الضعيف أسباباً كافية لنا في هذا السن لنجعله مثاراً لسخريتنا.. لم تمض سوى سنة واحدة حتى تغير سلوكه وأصبح عنيفاً مع من ينهره.. أصبح يرد الصاع صاعين.. حتى تحول إلى شخص ينبغي عليك تجنبه حتى لا تتعرض للأذى..

كانت تلك العزبة جوار مزرعة أبي.. فكنت أذهب إلى هنالك في الكثير من الأحيان.. وأراه بحقيقته الأولى وفطرته السليمة وهو يضحك مع أبناء عمومته.. أراه وهو يصطاد السمك مع خالد ابن عمه الأكبر سناً.. كان منطلقاً كما ينبغي أن يكون.. اكتسبت وده واكتسب صداقتي.. رأيته بالوجه الذي لم يره به أحد من زملائي.. رأيته كما هو.. لا أعلم إلى أين انتهى به المطاف الآن، ولكن أعلم جيداً أن العنصرية هي أسوأ ما يمكن أن يتعرض له الإنسان.. مهما حدث يا صديقي لا تجعل العالم يسخر

منك.. ولا تنس دائماً أن «الكاريزما» هي من تصنع الأبطال الحقيقيين.. إياك أبداً أن تسمح للعالم بأن يقلل من شأنك.. ضع أمام عينك «سحر الكاريزما»، وتأكد أنه أهم من أي جمال آخر.

عَنْ أبي هُرَيْرة عَبْدِ الرَّحْمن بْنِ صخْرٍ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»**.

ولعل أشهر نموذج يعبر عما أريد قوله وإثباته.. بأن للكاريزما سحر يطغى على سحر الجمال، هي «أوبرا وينفري».

أشهر إعلامية في تاريخ التلفزيون الأمريكي، بل الأشهر في العالم كله.

السيدة الأكثر تأثيراً في عالم الإعلام، وواحدة من أكثر السيدات تأثيراً في التاريخ.. كيف بدأت وإلى أين آلت بها الأمور.

تلك التي لم تهرب أبداً من ماضيها ولم تحاول مطلقاً أن تمحيه، كانت فخورة بكل عثراتها.. وبكل معاناة عصفت بها.. فقد كانت المنح في المحن ولولا ما مرت به ما كانت وصلت إلى ما وصلت إليه.

وُلدت أوبرا في التاسع والعشرين من يناير لعام

١٩٥٤، في ولاية الميسيسيبي الأمريكية، لأسرة تكاد تكون معدومة.. لأبوين غير متزوجين ولم تكن بينهما قصة حب.. بل التقيا مرة واحدة كانت أوبرا نتيجتها ومن ثم انفصلا.. تربت أوبرا مع جدتها وجدها حتى أصبحت في سن السادسة..

كانت ترتدي أثواباً مصنوعة من أجولة البطاطس.. مما كان يجعلها هي الأخرى مادة للسخرية بين الأطفال من نفس عمرها.. لاحظت معلمة أوبرا أنها أذكى من بقية الأطفال، فقامت بنقلها إلى الصف الأول في المدرسة..

حصلت على لقب الطالبة الأكثر شعبية، وعندما بلغت الثانية عشرة ذهبت للعيش مع أمها.. تعرضت للتحرش والاغتصاب على يد أحد أقاربها.. وحملت بطفل في سن الرابعة عشرة.. إلا أن مولودها لم يُكتب له العيش طويلاً وتوفي بعد ساعات قليلة من ولادته.

كان لهذه الأحداث التراجيدية تأثيراً كبيراً على حياة تلك الطفلة التي لم تكن تعلم حينها أنها ستصبح أول أمريكية من أصول أفريقية تصبح «ملياردية» بثروة قُدرت بنحو ٣ مليار دولار وفقاً للائحة مجلة (فوربس).

لم تستسلم ابنة الأربعة عشر عاماً.. فقد كانت مفعمة بالطاقة والعزيمة، فالتحقت بنادي الخطابة في مدرستها

وعملت على صقل موهبتها في التأثير في الناس، وتقديم العون لهم.. تخرجت من جامعة تينيسي بدرجة البكالريوس في الفنون المسرحية.

أسند إليها العمل في محطة تلفيزيونية محلية، وفي سن التاسعة عشر انتقلت للعمل في تلفيزيون ناشفيل، كأصغر مذيعة في تاريخ المحطة، وللأسف عانت من الفشل في بداية الأمر، وسرعان ما تم فصلها من النشرة لأنها كانت عاطفية عند نقل الأخبار.

في عام ١٩٨٢ حاولت العمل في برامج الطبخ، إلا أن طلبها لم تتم الموافقة عليه، وفي العام ١٩٨٥ كانت خطواتها تتجه نحو أن تصبح ممثلة بعد أن شاركت بدور أساسي في فيلم (purple color The) الذي رشح إلى ٩ جوائز أوسكار، وبعدها انهالت عليها الكثير والكثير من العروض السنيمائية والتلفيزيونية حتى بدأت برنامجها الشهير عام ١٩٨٩، وهو برنامج يومي يسلط الضوء على القضايا الاجتماعية التي تخص المجتمع الأمريكي..

سمي البرنامج باسمها «أوبرا وينفري»، ولم يمض الكثير حتى تحول إلى البرنامج الأشهر في أمريكا، ووصل إلى ملايين الناس وغير حياتهم وهم في بيوتهم بفضل الحضور الطاغي لمقدمته وطريقة حوارها..

لتصبح أنجح وأشهر نموذج إعلامي هام على مستوى العالم.. امتازت باللباقة والفصاحة والمواضيع الجدية والاجتماعية.. واكتسبت خبرات وعلاقات مهمة مع السياسيين والفنانين، ومن ثم أصبحت حالة يتحدث عنها الملايين.. وتؤثر في مختلف الناس من جميع أرجاء العالم.

تقول أوبرا في رسالة لنفسها عرضت في إحدى حلقات البرنامج:

«إلى الفتاة الجميلة صاحبة البشرة البنية.. أقول جميلة لأنني أدرك جيداً أنك لن تصفي نفسك بتلك الصفة مطلقاً.. أنظر إلى عينيك فأرى النور والأمل في نفسي.. في هذه الصورة أنا أوشكت أن أكمل العشرين.. أقف خارج محطة التلفزيون.. حيث تم تعييني كمراسلة.. تبدين سعيدة وهادئة، ولكن أنا أعلم كم كنت خائفة في ذلك الوقت، ولو استطعت قول شيء لك فسأقول اهدئي، كل شيء سيكون بخير في النهاية. أنت فخورة بنفسك لحصولك على هذه الوظيفة.. وأيضاً لست متأكدة.. لست متأكدة من أنك ستتمكنين من حضور جميع محاضراتك الجامعية.. والعمل بوظيفة تأخذ كل وقتك لتقديم الأخبار.. وبالرغم من ذلك ما يثير قلقك الآن هو كيف تديرين حياتك العاطفية مع بوبا..

نعم أنت تواعدين شخصاً يدعى بوبا.. في هذا اليوم قمتِ بإحضاره للمحطة ليرى أين تعملين.. أملاً أن يكون فخوراً.. لكنه بدا غير متفاجئ، والحقيقة أنه خائف.. أنت لا تعلمين ذلك لأنك تري نفسك فقط من خلال عينيه، وهذا درس ينبغي عليك تعلمه مراراً وتكراراً.. أن تري نفسك بعينيك فقط وتحبي نفسك من خلال قلبك.. لقد قضيتِ أياماً وسنوات عديدة في محاولة إرضاء الناس، وأن تصبحي مثلما يريدون.. أنا أفهم كيف ولماذا حدث هذا.. عليك أن تتعلمي أن الجروح التي تعرضت لها في الماضي.. اغتصابك في سن التاسعة.. والتحرش الذي تعرضت له من سن العاشرة حتى الرابعة عشرة، والضرب الذي تعرضت له كفتاة صغيرة من الأشخاص الذين قالوا أنهم يحبونك، لأنك خرجتِ بعيداً. وعدم السماح لك بالبكاء حتى، أو إظهار الغضب بعد ذلك، والذي على إثره تحطم احترامك الذاتي..

إذا كنتِ تعلمين الآن كم كان هذا مؤلماً، ومع ذلك تمكنتِ من التماسك والاستمرار في الإيمان بالله.. والأهم من ذلك إيمان الله بك، وهذه يا عزيزتي ستكون أفضل هدية لك.. وهي معرفة أن هنالك قوة أعظم من نفسك والثقة بها لتوجيهك.. فقد تغير مسار حياتك في اليوم الذي

أجبت فيه على اتصال (كريس كلارك)، فلقد كان مدير الأخبار في محطة كلية لوس أنجلوس الغربية، ولقد تضمن ردك كلمات من آيتك المفضلة في الكتاب المقدس.. تتذكرين؟!.. رسالة بولس الرسول إلى أهل فليبي الثالثة.. حيث اعتدتِ أن تقوليها في كل وقت «أسعى نحو الغرض لأجل رسالة دعوة الله العليا».. فمعرفة أن هناك مكافأة ربانية هو ما سيجعلك تتحملين وتحققين ذلك.. فمن المكان الذي أجلس فيه الآن وأعرض رحلتك هناك القليل من الندم وهذا يعني أنك حصلتِ على حياة جيدة.. حتى بعد أن فهمتِ أن النجاح يكمن في التماشي مع الحياة وليس ضدها، سيكون أعظم إنجازاتك.. لقد جعلتني فخورة».

* * *

٤ - الخطة (ب)

لابد أنكم لاحظتم كم أنا مرتبط بالـ Gaming بشكل ربما يكون مبالغ فيه، فمن يعرفني جيداً يعرف كم أنا مهووس بألعاب الفيديو.. حتى أن أحد أصدقائي ذات مرة قال لي:

- مش هتكبر أبداً عالألعاب دي بقى؟!.. هي والدتك كانت مخبية منك الأتاري فوق الدولاب طول عمرك ولا إيه؟ في إيه انت مش بتشبع أبدًا من اللعب؟!.

الحقيقة هي أني لم ولن أشبع قط من اللعب، أعوام مضت، ربما ٢٥ عاماً من اللعب اضربها في ٣٦٥ يوم ثم اضربها في ساعتين على الأقل يومياً.. ستعرف وقتها كيف أضعت معظم ساعات عمري.

كانت وسيلتي الوحيدة للهروب من الواقع فلجأت إليها، واستمتعت بهذه الألعاب.. وسقطت في فجوتها الزمنية بإرادتي الحرة، لأخلق عالماً من الخيال الموازي للواقع الممل في كثير من الأحيان، كي أستطيع أن أخلق نتاجاً خالصاً هو مزيج من الخيال الممتع والواقع المثير.

في طفولتي لم تكن رفاهية الكومبيوتر المنزلي متاحة.

كانت علاقتي بالكومبيوتر عن طريق مناهل المعرفة فقط.. حتى قامت جمعية تنمية المجتمع بإنشاء «سايبر» في مستشفى القرية..كان السايبر في الدور الرابع..

أذكر أول مرة ذهبت فيها كأنها تحدث الآن.. ذهبت في البداية إلى أبي وأخبرته عنها فأعطاني جنيهاً جديداً يشبه جنيهات العيديات.. وذهبت بالفعل ودخلت إلى ذلك العالم للمرة الأولى..

تعرفت على الأستاذ (رضا)، والذي كان ودوداً للغاية.. يا الله.. كم كنت أحب ذلك الرجل.. كان يحسن معاملتي حتى قبل أن يعرف أني ابن الأستاذ إبراهيم، والذي كان – بالمصادفة- رفيقاً له في السكن أثناء سفرهما للعراق.. حكى لي كثيراً عن وقوف أبي بجانبه في الكثير من المواقف، وتعلق بي.. عاملني معاملة الأب للابن.. أكثر ما كان يميزه هو «باله الطويل» وأخلاقه الحسنة.. كانت ورديته تبدأ من الرابعة عصراً.. يسبقه في وردية الصباح أستاذ آخر كان صعباً ولا يحب الأطفال.. ضيّق الخلق لأبعد الحدود.. لم أكن أكرهه أبداً، بالعكس.. أحببته أيضاً، ولكن شدته في التعامل جعلتني لا أفضل أبداً الذهاب للمكان أثناء تواجده.

في تلك الأيام كانت الساعة تكلف جنيهاً واحداً.. والحد الأدنى لاستئجار الجهاز (ربع ساعة).. كنا في العام ٢٠٠٠.. وكان لا يزال الجنيه يحتفظ بقيمته، وكنا لازلنا نستمتع بأبسط الأشياء.

وكان الـ (السايبر) كما كنا نسميه، مثله مثل «لاس فيجاس» بالنسبة لنا.. وكانت قاعدة «أصدقاء السايبر» المقدسة هي أن ما يحدث في السايبر يبقى في السايبر.

كانت هناك بعض الألعاب المنتشرة والتي يعرفها

أبناء جيلي عن ظهر قلب مثلHercules وClaw وrush Road ولعبة «إزاي تخنق جارك» أو Hell from Neighbours.. وكانت رحلتي قد بدأت مع كرة القدم بفيفا ٩٨.. كان هذا قبل أن يدخل البلايستيشن إلى القرية.. ونلعب اللعبة اليابانية الأشهر في تاريخ ألعاب كرة القدم.

كم أشتاق لتلك الأيام، ولصوت ذلك المعلق وهو يقول «باتيستوتاااااا».. تشكيل نجوم منتخب العالم الخارق ومنتخب أوروبا.

لا يوجد أحد من أبناء ذلك الجيل لا يعرف شفرة الترميز السرية «سهمين لأعلى.. سهمين لأسفل.. سهم يمين.. سهم يسار ثم رمزي X - O»، وذلك لكي تظهر القائمة المخفية للمنتخبات الخارقة كنجوم العالم ونجوم منتخب أوروبا والتي تحتوي على تشكيلة افتراضية لأفضل اللاعبين في العالم. وكانت منتخبات لا تقهر.

الجميع نقل اللاعب المدافع «روبيرتو كارلوس» من مركز الدفاع إلى الهجوم لسرعته الخارقة وركلاته القوية.

ذكريات مشتركة.. فترات عاشها الكل بنفس التفاصيل البسيطة والجميلة..

لكن تبقى لعبتي المفضلة على مر الأيام.. هي لعبة

.commandos

اللعبة تحكي عن فريق قوات خاصة في الحرب العالمية الثانية.. وقصص حقيقية لمهمات حدثت بالفعل.. كان في اللعبة شخصيات رئيسية مثل Green The Beret، وهو قائد المجموعة ككل.. ويمتاز بالقوة.. ولديه القدرة على التعامل بالسكاكين وحمل براميل الوقود، وكان لديه رادار يستخدمه في خداع العدو عن طريق تشغيله عن بعد.. فيصدر صوتاً يجعل الجنود يذهبون إليه ويتجمعون حوله.. وكذلك Sniper The.. كان القناص الخاص بالمجموعة.. والذي لا يخطئ الأهداف أبداً..

وأيضاً كان هناك Driver The، من اسمه كان الوحيد القادر على قيادة السيارات، وكان يجيد التعامل مع الأسلحة الثقيلة كالرشاشات.. وخصوصاً رشاشات ال «بي كي».. وأيضاً.. كان لديه قارب وأنبوب أكسجين وبندقية صيد، وكانت له أدوار محورية في المهمات الخاصة بالمناطق المائية، ولكي لا ننسى The Sapper.. كان خبير المفرقعات بالمجموعة، وكان لديه فخ يشبه فخ الصيد تماماً.. بمجرد أن تطأه قدميك ينغلق عليها.. كانت قنابله اليدوية منقذة دائماً في أصعب المواقف.. ولكن شخصيتي المفضلة دائماً كانت The

Spy.. الجاسوس..

كان مهندماً.. لبقاً.. أنيقاً في أسلوبه في القتل.. فقد كان يقتل عن طريق حُقن سامة.. كان يتخفى في زي جنرال من جيش العدو.. ويشتت انتباه الجنود بمنتهى الحرفية.. كان الأفضل والأذكى على الإطلاق.. لم أكن محترفاً في تلك اللعبة في بداية الأمر.. فلم أكن أدرك كيفية التخطيط.. وتوقيتات الهجوم.. والانسحاب بأقل الخسائر.. ولكن سرعان ما ظهر «محمد عبد الخالق»..

كان محمد يكبرني سناً بحوالي عشر سنوات.. جلست ساعات طويلة وأنا أشاهده يلعب.. تعلمت منه وتأثرت به.. تكلمنا عن الحروب العالمية في الواقع وعن أذكي الشخصيات المشهورة من القادة.. حدثني عن نابليون وهتلر وروميل ثعلب الصحراء، وإرنست بوش، وكذلك الشهير برنارد مونتغمري.. حدثني عن طارق بن زياد وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وموسى نصير.

عرفت منه أن الحرب خدعة، وأن البقاء للأذكى.. وعرفني أيضاً على أذكى قائد حربي في التاريخ كله والأيقونة الأعظم بالنسبة له على الإطلاق، وهو الإسكندر الأكبر.

كان الإسكندر هو أشهر القادة العسكريين والفاتحين

على مر العصور بلا شك.. يعتقد الكثيرون بأنه هو ذو القرنين.. الذي ذُكر في القرآن الكريم في سورة الكهف.

تتلمذ الإسكندر على يد الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو حتى بلغ السادسة عشر من عمره.. وعندما بلغ الثلاثين من عمره كان قد أسس واحدة من أكبر وأهم الإمبراطوريات التي عرفها العالم في ذلك الوقت، والتي امتدت من اليونان غرباً.. إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقاً.. ولعل ما يجعل منه قائداً أسطورياً هو أنه لم يهزم في أي من المواقع التي خاضها على الإطلاق..

هو الإسكندر الثالث المقدوني.. المعروف بالإسكندر الأكبر، والقائد الأعلى للرابطة الهيلينية.

ولد في مقدونيا في العشرين من يوليو في العام ٣٥٦ قبل الميلاد.. وتربى الإسكندر في بداية حياته على يد مربية وخادمة تدعى «لانيك» وتتلمذ على يدي ليونيس الإيبروسي ولسيماخوس أحد قادة الجيش العاملين لدى والده.

تعلم القراءة والكتابة وعزف القيثارة وركوب الخيل والصيد والمصارعة. وكان في العاشرة من عمره حين أتى أحد التجار لوالده بحصان.. وعندما فشل الملك في ترويض الحصان أمر بذبحه كونه حصان جامح لا يصلح

للركوب.. إلا أن الإسكندر طلب من والده أن يسمح له بالمحاولة.. ونجح في ترويض الحصان والسيطرة عليه تماماً.

عندما بلغ الثالثة عشر.. بحث له والده عن معلم فلم يجد أفضل من أرسطو.. فتعلم على يديه مبادئ الطب والفلسفة والأخلاق والدين والفن والمنطق.

اغتيل والده على يد حارسه الشخصي.. ولكن الحراس اكتشفوا أمره وقتلوه.. وتمت مبايعة الإسكندر ليصبح على عرش أبيه وهو في العشرين من عمره.

ورث الإسكندر عن أبيه دولة مزدهرة وجيشاً قوياً.. فاستغل ذلك وأراد أن يوسع من حدود مملكته، وحارب الفرس على مدار ١٠ سنوات كاملة، وتمكن في نهاية الأمر من الإطاحة بالشاه الفارسي داريوش الثالث، وسيطر على إمبراطوريته بالكامل.. وبعد أن قضى الإسكندر وجيشه الشتاء بالكامل يغزون ويفتحون المدن في آسيا الصغرى.. تابعوا زحفهم جنوباً وعبروا بوابات قلقيلية.. فالتقوا بالفرس مرة أخرى عند «أسوس»، واشتبك الجيشان في موقعة أسفرت عن انتصار مدوٍ لجيوش الإسكندر وهزيمة الفرس هزيمة ساحقة.

احتفل الإسكندر بنصره وأنشأ مدينة في شمال البلاد

على حدود الأناضول، وهي مدينة الأسكندرية.

ولم يقف طموح الإسكندر عند هذا الحد، فقد عبر الإسكندر بجيشه نهر السند لمواجهة الراجا «بور» قائد ممكلة (بوراقة).. في معركة كبرى تسمى هيداسبس، كان ذلك في العام ٣٢٦ قبل الميلاد.. وكانت تلك المعركة تحديداً هي الأصعب على الإطلاق، فقد أطاحت بالكثير من جنود الإسكندر.. ولكنه وبفضل خبرته وحنكته العسكرية.. استطاع أن يحسم الأمر لصالحه في النهاية.. وكان الإسكندر طامحاً لأن تستمر فتوحاته لأكثر من ذلك، ولكنه فشل في إقناع جنوده الذين قالوا له أنهم «تاقوا لرؤية أبنائهم وأمهاتهم وزوجاتهم كذلك»، ومن ثم أمرهم بالعودة إلى بلادهم.

اتفق المؤرخون على أن الإسكندر الأكبر تفوق عسكرياً على كل الجيوش التي قابلها، والتي تفوقت عليه أحياناً في العدد والذخائر.. ويرجعون ذلك لإستراتيجياته الفريدة التي درب عليها المشاة والخيالة، وطريقة استغلاله للظروف الطبيعية الخاصة بأرض الموقعة.

توفي الإسكندر الأكبر في أرض نبوذخذ نصر ببابل في يونيو في العام ٣٢٣ قبل الميلاد.. واختلف المؤرخون في أسباب وفاته، فقال البعض أنه اغتيل عن طريق السم

على يد أحد المقربين منه، وكان وراء ذلك الاستقراطيين المقدونيين.

إلى أن أتت نظرية حديثة بمقتبل العام ٢٠١٠، تقول أن أعراض التسمم التي مر بها الإسكندر الأكبر، والتي ذكرت في الوثائق القديمة تشبه إلى حد كبير أعراض التسمم بالماء الأسود لنهر «ستيكس» الذي يحوي مادة «الكاليكميسين» فائق الخطورة، والذي تسببه أحد أنواع البكتيريا القاتلة.

وبرغم أن الإسكندر رحل عن عالمنا منذ أكثر من ألفي عام.. إلا أن صداه وصيته وشعبيته لاتزال موجودة باعتباره واحد من أفضل القادة العسكريين إن لم يكن أفضلهم، فقد استطاع في ١٠ سنوات فقط أن يغزو العالم القديم بأكمله.

> «لا أخاف من جيش من الأسود يقوده خروف، بل أخاف من جيش من الخراف يقوده أسد».
>
> **الإسكندر الأكبر**

* * *

٥ - حلو الحلو

التسعينات وما أدراك ما التسعينات..

فترة دافئة مرت على العالم.. كان لايزال كل شيء هادئاً.. لم نكن بمثل هذا التطور القاسي الذي أصبحنا عليه..

تلك الأيام التي كنا نجتمع فيها في بيت جدتي..

إنها ليلة العيد.. نسهر أمام مسرحيات «العيال كبرت، ومدرسة المشاغبين».. نأكل «الفشار والشيبسي والآيسكريم».. لك أن تتخيل أن التلفزيون المصري كان لا يزال عبارة عن قناتين فقط.. الأولى والثانية، والسادسة أحياناً..

تلك الساعات الطويلة التي ضاعت في «ضبط الإريال».. وانتظار فيلم السهرة ليلة الجمعة.. الفيلم العربي الذي ما كانت تقطعه النشرة.. وبرنامج خواطر الشعراوي.. تلك الموسيقى لازالت تترك صدى في روحي.

أياماً لا تنمحي من مخيلتي مهما حدث.. العائلة تجتمع بأسرها في متر مربع أمام شاشة ١٤ بوصة..

شاهدنا (زورو) و(بات مان) و(سلاحف النينجا) و(ذا ماسك).. يتحولون جميعاً من شخصيات كارتونية لأبطال أفلام سنيما حقيقيين.

شاهدنا((alone Home بجزئيه الأول والثاني، وضحكنا كثيراً، وأبهرَنا ذلك الطفل الذي تمكن من حماية منزله من اللصوص بمفرده وهو في سن الثامنة فقط..

شاهدنا (out day s'Baby)، وكيف استطاع ذلك الطفل الذي لم يتجاوز ال ٦ أشهر أن يتجول في المدينة ويطابق صور الأماكن الحقيقية بتلك الصور في الكتاب الذي كانت تقرؤه له مربيته قبل أن ينام.

في التسعينات كل شيء أهدأ.

لا يوجد إشعارات من (الفيسبوك والواتسآب).. لا مجال لأن تشعر بالملل فتأخذ جولة على «الإنستجرام».. لا مجال لأن ينسحب أحد لإجراء مكالمة تليفونية.. الكل في انسجام.. الكل موجود للكل بالفعل قلباً وقالباً.. ليس مجرد رسالة نصية أو call video..

ليالي العيد.

صوت خالتي سعاد وهي في المطبخ تنادي «وليد» كي يفتح لنا الباب.. أخيراً وصلنا بيت جدتي.. الآن سأخلع كل همومي على عتبة ذلك الباب الخشبي الملهم.

ذلك البيت الصغير من حيث المساحة.. الكبير من حيث الدفء.. لا مسئولية حقيقية.. لا همّ حقيقي سوى واجب الرياضيات..

كنا نسهر جميعاً حتى يأخذنا النوم.. لا تعرف أين ولا كيف نمنا.. ولا تعرف كيف لبيت صغير كهذا أن يستوعب هذا الكم الهائل من البشر.. كان المنزل بالكامل عبارة عن دورين على مساحة ستين متر فقط.. في البداية كان الدور السفلي عبارة عن غرفة كبيرة جعل منها جدي مكاناً للحصان ومستلزماته.. شيء أقرب إلى اسطبل صغير.. والذي أصبح فيما بعد غرفة صغيرة تحتوي على المطبخ.. وقبل ذلك كانت جدتي تطبخ أمام باب الشقة التي في الدور الثاني.. قضت أكثر من ٤٠ عاماً ليس لديها مطبخ.. تغيرت جميع ملامح الشارع إلا هذا البيت.. حتى أنا أسكن في نفس الشارع الآن، ولكن لم أشعر أبداً بنفس الدفء.

لنا في بيت جدتي ذكريات لا يمكن أبداً أن تنسى.. وأيام لا تعوض..

الجميل في تلك الفترة أنها كانت «حقيقية».

كل إحساس مررت به من حزن أو فرح أو أمل أو إحباط أو لهفة أو برود.. كان حقيقياً فعلاً.. لم أكن أدعي

شيئاً.. لم أكن أضحك سوى من قلبي.. كانت كل انفعالاتي صادقة للغاية.

أبرز ما في تلك الفتره هي الأفلام بالأبيض والأسود، التي شكلت جزءاً مهماً من ذوقي وطريقة تفكيري.. أحببت نجيب الريحاني وعلي الكسار وإسماعيل ياسين وعبد المنعم إبراهيم وتوفيق الدقن وذلك الثنائي المتمثل أمامي في الخير والشر.. نبرة صوته حين يقول «العلبة دي فيها إيه؟!».. كأحد أشهر «الإفيهات» في تاريخ السنيما المصرية.

حفظت «مونولوجات» إسماعيل ياسين.. وأحببت شوكوكو وتأثرت به.. وأصبح من العلامات المؤثرة في طفولتي من خلال شخصية لبلب.. التي استطاعت أن تضرب شمشون سبعة أقلام في سبعة أيام وانتصرت قوة العقل على قوة الجسد..

كان محمود شكوكو فناناً عظيماً، أحسست حين كبرت كم كان يشبهني.. فقد عرفت أن وراء ذلك المضحك.. قصة لوَّنَها الحزن وسيطر عليها.. تماماً مثل تشارلي تشابلن.. فقد لقبوه بتشارلي تشابلن العرب.

ما أصعب أن تكون فناناً حزينًا يغلب على كل أعمالك الطابع الكوميدي!.. رغم أنه كان يعيش حياة تراجيدية

بكل معنى الكلمة..

كان محمود شكوكو من مواليد حي الكحكيين بالدرب الأحمر مايو للعام ١٩١٢.. اسمه الحقيقي محمود إبراهيم إسماعيل موسى، ولمن لا يعرف، هو جد الفنان أمير كرارة لأمه.

في بداية حياته الفنية تعرض لكثير من الضرب على يد والده، لأنه كان يعمل على مدار اليوم في ورشة النجارة، وفي الليل يذهب ليغني في الأفراح والملاهي، وكان في بدايته يقلّد الفنانين ويغني لمحمد عبد الوهاب ومحمد عبد المطلب، ولم يجد استحساناً لدى الجمهور فأدرك أنه ليس مطرباً.

اتجه شكوكو مباشرة إلى فن المونولوج، وكانت تلك نقطة التحول. كلمة شكوكو.. جزء من اسم محمود.. وكتبت في شهادة الميلاد الرسمية، فأصبح اسمه مركباً (محمود شكوكو)، وترجع تلك التسمية إلى جده إسماعيل موسى، الذي كان يهوى تربية الديوك الرومي، وكانت الديوك تتعارك فيما بينها وأحدها الأكبر حجماً كان يطلق صيحة متميزة عندما يشتبك مع الديوك الأخرى، ويبدو كأنه يقول

(ش ش كوكو). أثار ذلك الديك إعجاب الجد بشدة..

وكان يهتم به أكثر من باقي الديوك.. وعندما أنجب ابنه إبراهيم ولداً أراد الأب أن يسميه محمود.. لكن الجد ظل متمسكاً باسم (شكوكو)، وإرضاءً للاثنين تمت كتابته في شهادة الميلاد محمود والشهرة (شكوكو).. ثم أعيد قيد اسمه مركباً (محمود شكوكو) في السجلات الحكومية.

منذ أن كان طفلاً.. كانت خفة دمه وموهبته ملحوظة للجميع.. كان يدفع شكوكو كل ما يحصل عليه من الورشة على مصادقة أصحاب الفرق الموسيقية، من أجل أن يسمحوا له بإلقاء بعض الأغاني والمونولوجات.. وكانت البداية حين شاهده الفنان علي الكسار في إحدى الحفلات، وضمه إلى فرقته. وكان شكوكو يغني المواويل والمونولوجات بين فصول الأعمال المسرحية التي تؤديها الفرقة..

ارتفعت أسهم شكوكو ونال قدراً كبيراً من الشهرة.. وأصبح فقرة أساسية في معظم الأفراح والحفلات الخاصة، إلى أن قابل الإذاعي الكبير محمد فتحي الذي أقنعه بتقديم تلك الأعمال في الإذاعة.. وكانت الإذاعة في ذلك الوقت هي المنصة الإعلامية الأولى، وكان ذلك هو الحدث الفارق في حياة شكوكو.. فقد كانت شهرته في الإذاعة بوابته التي دخل منها إلى عالم السينما، وفي فترة

زمنية قياسية استطاع أن يشارك في حوالي مائة فيلم.. حصل معظمها على إعجاب الجماهير. ولعل أكثر ما كان يميز شكوكو هو أنه كان يؤدي أعماله بالزيّ الشعبي.. (الجلباب والطاقية).. ومن الغريب أنه من الفنانين القلائل الذين صُنعت لهم تماثيل صغيرة من الزجاج كانت تباع.. وكانوا يستخدمونها في مقاومة الاحتلال الإنجليزي، كما هو الحال حالياً باستخدام زجاجات البيبسي الفارغة في صنع المولوتوف (القنابل الحارقة).. واستمر بيع هذه التماثيل حتى بعد انتهاء الاحتلال البريطاني.

يقول شكوكو في إحدى اللقاءات النادرة.. عن أول أجر تحصّل عليه:

- أخدت قرشين صاغ.. كنت بشتغل عند واحدة اسمها فاطمة الكسارة في الموالد، كنت بروحلها الجيزة.. ١٢ مليم رايح و١٢ مليم جاي.

كان القرش يساوي ١٠ مليمات.. أي أنه كان يدفع فوق أكثر من أجره في المواصلات فقط، ولكنه تابع حديثه قائلاً:

- بس أنا كنت بكسب من صنعتي.

رحمة الله عليه كان فنان اليد والقلب.. كانت أمنيته أن يظل يعمل بالفن حتى وفاته.. وبالفعل تحقق ما تمناه..

فعندما كان يشارك بمسرحية (الزيارة الأخيرة).. شعر بأزمة صحية مفاجئة.. نُقل على إثرها للمستشفى وظل عدة أيام، ثم توفي بعد ذلك في ٢١ فبراير للعام ١٩٨٥، في الثالثة والسبعين من عمره.. بعد أن قضى.. أكثر من ٥٥ عاماً في عالم الفن.. كان فيها متربعاً على عرش المونولوج الشعبي الهادف.. وكان سبباً رئيسياً في رسم الابتسامه على وجه الملايين في مصر والوطن العربي..

«لابدّ للمرء أن يكون واثقاً من نفسه. هذا هو السّر. حتى عندما كنت أعيش في ملجأ الأيتام، وحتى عندما كنت أهيم على وجهي في الشوارع والأزقة باحثاً عن لقمة خبز أملأ بها معدتي الجائعة. حتى في هذه الظروف القاسية كنت أعتبر نفسي أعظم ممثل في العالم، كنت أشعر بالحماس الشديد يملأ صدري لمجرد أنني أثق في نفسي، ولولا هذه الثقة لكنت قد ذهبت إلى النفايات مع بالوعة الفشل».

تشارلي تشابلن

* * *

٦ - ميراث النبوة

«لن تكون متديناً إلا بالعلم.. فالله لا يُعبد بالجهل»

الدكتور مصطفى محمود

العلم بداية الطريق إلى الله وإلى كل شيء.. لا أتحدث عن حشو الرأس بالمنهج الدارسي لمجرد أن تفرغه في ورقة الإجابة.. كل ما أقصده هو المعرفة.. ذلك الشغف الذي قد يدفع طفلاً صغيراً أن يفكك لعبة ليعرف ماذا بداخلها.. ويدفع عالم كبير ليفني عمره بحثاً عن علاج للسرطان..

العلم هو قيمتك الفعلية.. مدى ثقافتك وإلمامك بشتى الأمور.. معرفتك بالتاريخ والدين والأدب والسياسة والفنون والرياضة والموسيقى.. تعلمك لغات أخرى، واختلاطك بثقافات عديدة.. معرفتك بكل ما يحيط بك.. رحلة التعلم لا تنتهي إطلاقاً.. يظل الإنسان في رحلة علم إلى أن يدركه الموت

كان نجيب محفوظ عاشقاً للعلم وللقراءة وكان ينعي بصره ويقول:

«حزني على فقدان قدرتي على القراءة يفوق حزني بسبب عدم قدرتي على الكتابة».

العلماء النوابغ كثر على مر التاريخ، ولم يكن دور العالم مقتصراً على كونه عالم فقط، فابن سيناء كان عالماً وشاعراً، وجابر بن حيان أبو الكيمياء.. كان فيلسوفاً ومهتماً بالفلك.. وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية هو عالم عربي سوري.. كذلك مؤسس علم الاجتماع كان بن خلدون وهو عربي تونسي ومن أوائل المؤرخين، وأيضاً محمد بن محمد الإدريسي أحد كبار الجغرافيين في التاريخ ومؤسسي علم الجغرافيا، كما أنه كتب في الأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب واستخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوروبية، حيث تحديد اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات، وضمنها أيضًا معلومات عن المدن الرئيسية، بالإضافة إلى حدود الدول. وبالطبع الحسن بن الهيثم مؤسس علم البصريات. فقد كان للعلماء العرب دور كبير جداً في التطور الذي وصلت إليه أوروبا والعالم أجمع في مختلف العلوم..

نحن لازلنا نفتخر بالراحل د. أحمد زويل.. ونرجو الله أن يبارك ويمد في عمر د. مجدي يعقوب.. فلن تكون هنالك قيمة لشخص جاهل.. وأنا على يقين أن العلم هو الفارق الحقيقي بين الشعوب.

«الذكاء الحقيقي ليس بالمعرفة.. بل بالتخيل»

(آينشتاين)

حين كنت في الصف الخامس.. التحق بنا طالب يدعى وليد علي.. كان وليد أكبر منا سناً، ولكنه كان يعيد السنة.. كان يتعرض هو الآخر للتنمر كون شعره طويل للغاية.. أطول من بعض الفتيات في الفصل.. حتى أنه كان مشهوراً باسم «وليد أبو شعر طويل»، الغريب في الأمر أنه لم يكن منطوياً على نفسه.. ولم يكن غبياً أبداً.. كل ما في الأمر أن وليد كانت له اهتمامات أخرى.. كان مهووساً بفك وتركيب كل شيء.. أذكر أنني ذهبت لزيارته في مرة.. فوجدته قد اخترع سيارة من الخشب والبلاستيك تمشي بالبطاريات.. ويتحكم بها عن بعد، كانت مدهشة.. وعالية الجودة.. كانت أفضل من كل السيارات التي تباع في المحلات.. يا إلهي أي شخص هذا؟!.. لا يعرف ناتج قسمة ٩ على ٣ مع ذلك يخترع سيارة.

لم يحب الدراسة مطلقاً.. لم يهتم بها فلم يبدع فيها.. لا تطلب من السمكة أن تتسلق شجرة وتنتظر نتائج مبهرة.. كل إنسان له اهتماماته الخاصة وطريقة حياته وأسلوبه في التفكير.. النجاح الدراسي من عدمه برغم أنه ضروري ويشكل مستقبلك، إلا أنه لا يعبر عن ذكائك.. وليس مقياساً

لفشلك، ولعل أكبر دليل على ذلك هو عبقري القرن آلبرت آينشتاين.

دعني أعرفك على من اتفقت معظم المحافل العلمية على اعتباره أعظم عالم عرفه التاريخ.. وواحد من أذكى العقول البشرية في التاريخ الإنساني المسجل..

ولد آلبرت آينشتاين في مدينة «أولم» الألمانية عام ١٨٧٩ لأبوين يهوديين، وأمضى طفولته في «ميونخ»، ورغم أنه لأبويين يهوديين إلا أنه التحق بمدرسة إعدادية كاثوليكية.. آينشتاين لم يكن فاشلاً في الدراسة بالطبع، ولم يواجه صعوبات في الرياضيات كما يعتقد البعض.. لكن كانت لديه صعوبات في الكلام حتى سن الثالثة.. ولكنه تجاوزها وأصبح عازفاً للكمان ويتحدث اليونانية واللاتينية أيضاً. كذلك كان يحصل على درجات سيئة في بعض المواد التي لم تكن ضمن اهتماماته، فالموضوع كله متعلق بما تهتم به.. وتبدع فيه.. بصمتك الخاصة وطريقتك في التفكير..هذا ما يميزك.. بعض الناس يقولون لو أن آينشتاين تخصص في الكيمياء لتمكن من تحويل التراب إلى ذهب.. لكن إبداع آينشتاين ذهب كله إلى علم الفيزياء.. ولعل نقطة التحول الأولى في حياة آلبرت أنه عندما كان في سن الخامسة أهداه والده

بوصلة.. ويقال أيضاً أنه كان مريضاً وراقداً في الفراش، وكان والده يداعبه باستخدام البوصلة لكي يخفف عنه أعباء المرض.. عندما نظر ذلك الطفل الصغير للبوصلة ورآها تتحرك، أدرك أن هناك قوة في الكون تقوم بالتأثير على حركة الإبرة بداخل البوصلة.. ولعل أعظم إنجازات ألبرت العلمية هي اكتشافه للنظرية النسبية.

بعدما أنهى دراسته الثانوية.. انتقل إلى سويسرا.

وأثناء دراسته.. قابل آينشتاين زوجته المستقبلية «ميليفا ماريتش».. وهي طالبة فيزياء صربية.. عارض أهله علاقتهما نظراً لأصولها العرقية، إلا أن آينشتاين استمر معها وأنجبا عام ١٩٠٢ ابنتهما «ليسريل». ومن الطريف أنه وقَّع مع زوجته عقداً ينص على أن تقدم له ٣ وجبات في اليوم.. ولا تجبره على الكلام حين لا يريد ذلك.. ولا تتوقع منه أي مشاعر أو عاطفة.. وكان يعتقد أن ذلك سيجعل الحياة تستمر في حالة تقدمهما في العمر ولكن سرعان ما انفصلا.

حاز في عام ١٩٢١ على جائزة نوبل في الفيزياء عن ورقة بحثية عن التأثير الكهروضوئي ضمن ثلاثمائة ورقة علمية أخرى له في تكافؤ المادة والطاقة وميكانيكا الكم وغيرها.. وأدت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد

من الظواهر العلمية التي فشلت الفيزياء الكلاسيكية في إثباتها. وأنفق آينشتاين غالبية النقود التي حصل عليها من الجائزة في تسوية الطلاق.. أي أن أكبر مستفيد من الجائزة هي الزوجة نفسها.

في ١٧ أبريل عام ١٩٥٥ عانى آينشتاين من تمدد الأوعية الدموية، وأُدخل المركز الطبي لجامعة برينستون إلا أنه رفض إجراء الجراحة، وكان مقتنعاً بأنه عاش بما يكفي ولابد له من تقبل فكرة موته وقال: «أريد الموت حين أقرر ذلك، لقد أديت دوري في الحياة ولا نفع من إطالتها بشكلٍ مصطنع، لذلك سأرحل بلباقة».

وبالفعل توفي آينشتاين في ١٨ أبريل ١٩٥٥ في السادسة والسبعين من عمره. وقام بتشريح الجثة الطبيب «توماس هارفي»، وأزال دماغ آينشتاين بدون إذن عائلته من أجل إجراء الدراسات عليه من قبل أطباء الأعصاب، وبعد عقود من دراسته حُفظ دماغه في المركز الطبي لجامعة برينستون. وأُحرق جسد آينشتاين ونشر رماده في منطقةٍ غير معروفة بناءً على وصيته.

«حاول ألا تصبح شخصاً ناجحاً فقط.. بل شخصاً ذو قيمة»

ألبرت آينشتاين

* * *

٧ - قبل ما تشوفك عنيا

تعرفت على زوجتي في أصعب فترات حياتي.. أو دعوني أقول في أغربها.

كنت أنهار تدريجياً بشكل غير مسبوق.. قد عبّرت عن ذلك في ديوان «لما كنا»، في جملة: «وكأني بنقص كل يوم حتة».

كنا في أبريل للعام ٢٠١٥.. وكما حكيت بالتفاصيل في كتاب «مطلوب حبيب».. كان حباً من النظرة الأولى.. لم أحتج إلا ثوان قليلة ونظرة واحدة حتى أتأكد أني أود قضاء بقية حياتي بجانب تلك الغريبة القريبة التي لم أكن أعرف حتى اسمها بعد..

وقفت وكأنني أمام فرصة حياتي.. أتشبث بها بكل ما أوتيت من شغف.. كبريائي يمنعني من أن أذهب لأحدثها.. وقلبي يدفعني قائلاً: «هيا! فرصة عمرك بانتظارك.. كلمها.. هيا قل شيئاً أيها الأحمق.. لا تقف هكذا»..

ظللت متردداً إلى أن وجدتها تقف أمامي وظهرها لي.. فاندفعت وقلت لها: «لو سمحتي».. قالت: «ممم؟!».. قلت لها (إوعي تمشي!).. فردت (حاضر) بتلقائية شديدة وباستغراب أشد.

قالت لنفسها: «من هذا المجنون؟!.. كيف يجرؤ!.. حتى وإن كان شخصية الحفل الذي أغطيه إعلامياً.. حتى وإن كان كل الحاضرين هنا فقط من أجله هو.. لابد من أنه معتوه.. هل يظن أنني إحدى معجباته؟!.. هل يظن أنني مجنونة بقصائده كتلك التي صرخت منذ قليل «أحبك».. أمام الجميع؟!.. ياله من مغرور.. من يظن نفسه؟!»

قبلها بعدة أشهر.. كانت حياتي بدأت بالفعل في الانهيار.. كنت لازلت أدرس، وكانت فترة امتحانات نهاية العام.. وكانت هي تدرس بكلية التجارة.. تغطي حدثاً إعلامياً ما.. تقول: «لم أكن أعرفك.. لكن سمعتهم يقولون هذا محمد إبراهيم شاعر معروف.. رأيتك خارجاً.. رث الثياب على غير ما سمعت عنك بعد ذلك..منكوش الشعر.. تكاد ذقنك تخفي ملامح وجهك الصغير.. منطفئاً.. يبدو عليك أثر الاكتئاب.. ونظرتَ أنت إلي.. وأطلت النظر.. حتى أن صديقتي قالت لي «هو بيبصلك كده

ليه؟!»

الغريب في الأمر أني لا أذكر هذا الموقف تماماً.. ولكن أذكر بالفعل تفاصيل الفترة واليوم نفسه.

تخيل أن ترى زوجتك لأول مرة.. وأنت لازلت لم تتخلص من قصة تأكل روحك.. وعلاقة استهلكت قلبك.. فتطيل النظر إلى زوجتك بفعل القدر والنصيب وكأنها رسالة لك.. ولكن تمضي دون أن تتذكر الموقف حتى، لأنك لم تكن ترى سوى ما تريد.. ولا تعلم أن الله رتب لك الأمر، وبعد شهور قليلة ستقابل حب عمرك الحقيقي.. ليس ذلك الحب الذي كاد أن يدمر حياتك..

في ليلة هذا اليوم.. كنت أتصفح ال Soundcloud.. وإذ فجأة تقتحم أم كلثوم المشهد وتقول:

«صالحت بيك أيامي
سامحت بيك الزمن»

.. وكأنها وقعت على مسمعي للمرة الأولى.. وكأنني مراهق أبدأ رحلتي في الحب والحياة من الصفر.. يشهد الله أني لم أعرف ما هو الحب.. ولم أضحك من قلبي بعد أن تجاوزت العشرين.. سوى على يد هذه السيدة (آية عماد الدين فؤاد).. الطفلة التي أحبتني.. دخلت عالمي

البائس لتأخذني إلى عالمها المبتهج.. أكثر شيء أحبه فيها.. هي أنها تجعلني أضحك.. أضحك من قلبي.. هي الوحيدة التي تجعلني كذلك.. الحمد لله على هذه النعمة.. لا أتمنى من الله إلا أن تدوم.. في هذه الليلة.. غرقت في بحور أم كلثوم.. تلألأ صوتها في مسامعي وكأني أسمعها للمرة الأولى.. يا إلهي ما هذا الصوت؟!.. حين كنت صغيراً كنت أستغرب.. كيف يقضون كل هذا الوقت في سماع أغنية واحدة؟!.. ما هذا الملل!.. وما كل تلك الموسيقى في البداية؟!.. وعليّ أن أعترف، لم تكن أم كلثوم تستهويني.. حتى أحببت آية.. حينها أحببت أم كلثوم.. وتعرفت عليها وعلى عالمها الخاص.

تقول «أميرة» ابنة الراحل العظيم سيد مكاوي عن علاقتها بأم كلثوم:

«كنت عيّلة عندي ١٤سنة وأنا بقول لأبويا إزاي أصدق واحدة عندها سبعين سنة بتقول يا مسهرني، قالي مش مهم تحبي صوتها بس اسمعيها كويس وافهمي هي ليه عايشة لحد دلوقتي والناس بتحبها كده، إبتديت أسمع الست بفِكر بَاحث عن سبب بقائها في وجدان الناس، لقيت صوت جبار وكلمات جاية من جوه قلوب بتحب قبل ما تكتب، ومزيكا وبروفات ودأب وشغل بجد، ثقافة وتعلم

ومحيط متنوع، مشروع جبار، ولقيت إن هو ده الفن اللي بجد، شغل ودأب وإخلاص وجد وصدق وحاجة غرضها الأول الناس، لا فلوس ولا شهرة ولا حتى تاريخ، أم كلثوم قبل ما تبقى صوت عظيم وصوت مصر وسيدة الغناء، ست اشتغلت مهنتها بأمانة، وهو ده اللي خلاها أعظم من كل اللي حواليها، ابتديت أحب بقى على (كلموني تاني عنك)، و(يا مسهرني)، و(ألف ليلة وليلة)، كل نوع من الحب أم كلثوم هي أعظم من غنى له. يا ست، ربنا يسعدك عنده ويجازيكي رحمة عن كل لحظة سعادة احنا فيها بسببك»

ولدت أم كلثوم في ٣١ ديسمبر للعام ١٨٩٨.. في قرية طماي الزهايرة بميت غمر.. وهي السنبلاوين حالياً. اسمها الحقيقي فاطمة بنت الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي، كانت من أسرة متواضعة، وكان والدها الشيخ إبراهيم مؤذن وإمام بمسجد القرية.

عاشت العائلة في مسكن صغير مُشيد من طوب طيني. وكانت حالة الدخل المادي للأسرة منخفضة حيث أن المصدر الرئيس للدخل هو الأب الذي يعمل كمُنشد في حفلات الزواج للقرية.. ورغم ذلك التحقت بكُتَّاب القرية، وتعلمت القراءة والإنشاد من والدها في سن صغيرة،

فبرزت موهبتها. وكذلك تعلمت تلاوة القرآن الكريم وحفظته عن ظهر قلب.. وعندما سمعت أباها يعلم أخوها خالد الغناء، لأنه كان يصحبه ليغني معه في الأفراح والاحتفالات، فعندما سمع ما تعلمته انبهر من قوة نبرتها، فطلب منها أن تنضم معه لدروس الغناء.. وبدأت الغناء بسن الثانية عشرة، وذلك بعدما كان يصطحبها والدها إلى الحفلات لتغني معه. وكانت تغني وهي تلبس العقال وملابس الأولاد، وبعدما سمعها القاضي «علي بك أبو حسين» قال لوالدها: «لديك كنز لا تعرف قدره.. يكمن في حنجرة ابنتك، وأوصاه بالاعتناء بها»

كانت أم كلثوم بارزة منذ الصغر. في البداية كان عملها مع والدها مجرد مصدر دخل إضافي للأسرة، لكنها تجاوزت أحلامه بكثير حين تحولت إلى المصدر الرئيسي لدخل الأسرة البسيطة، حينها أدرك الأب ذلك فقد أصبح الشيخ خالد ابنه المنشد وأصبح الأب كذلك في بطانة ابنته الصغيرة.

مرت الأيام وتصادف أن كان «أبو العلا» مع أم كلثوم في القطار، وسمعها تردد أحد ألحانه دون أن تعرف أنه معها على نفس القطار، وذلك بعد عام١٩١٦، حيث تعرف والدها على الشيخين زكريا أحمد وأبو العلا محمد،

اللذين أتيا إلى القرية لإحياء ليالي رمضان. وبعد محاولات كثيرة أقنعا الأب بالانتقال إلى القاهرة ومعه أم كلثوم، وذلك في عام ١٩٢٢. كانت تلك بداية مشوارها مع الفن.. حيث أحيت ليلة الإسراء والمعراج بقصر عز الدين يكن باشا وأعطتها سيدة القصر خاتماً من الذهب وأجراً ٣ جنيهات.

وبعد أن استقرت أم كلثوم بالقاهرة.. وازادات شعبيتها إلى حد كبير، تعرفت على الشاعر أحمد رامي عن طريق أبي العلا.. في إحدى الحفلات كان رامي متواجداً بعد عودته من أوروبا، فأدرك أنه قد وجد ما يبحث عنه، لكن البداية الحقيقية كانت عندما سمعها الملحن محمد القصبجي..

بدأ محمد القصبجي في إعداد أم كلثوم فنياً ومعنوياً مشكلًا لها فرقتها الخاصة، وأول تخت موسيقي، مما جعل أباها يترك دوره كمنشد وينسحب هو والشيخ خالد.

بعد ذلك خلعت أم كلثوم العقال والعباءة وظهرت في زي الآنسات المصريات.

وكانت أم كلثوم أول من غنى في الإذاعة المصرية بعد افتتاحها عام ١٩٣٤

كانت علاقة أم كلثوم ببليغ حمدي هي العلاقة الأقرب

إلى قلبي في مسيرتها الفنية.. فبليغ حمدي واحد من أعظم الملحنين في تاريخ الأغنية المصرية والعربية.. في البداية طلبت من محمد فوزي أن يلحن لها إلا أنه اعتذر بكل أدب ولباقة وقال لها:

- عندي ليكي حتة ملحن يجنن مصر حتغني ألحانه أكتر من ٦٠ سنة قدام.

فكان اللقاء الأول في حفلة في منزل الدكتور زكي سويدان، أحد الأطباء المعالجين لأم كلثوم، وهناك بدأ بليغ في تلحين الكوبليه الأول وهو جالس على الأرض ما أدهش الجميع فما كان من أم كلثوم إلا أن فعلت مثله وجلست بجواره، وطلبت منه بعد تلحين أول كوبليه أن يكمل اللحن، ولكنه قال أنه لم يكمله، فقالت له أنها سوف تتصل به ويكون قد جهّز اللحن، ليشاء القدر وتغني أم كلثوم أغنية (حب إيه) في نهاية العام ١٩٦٠، وتحقق نجاحاً لم يسبق له مثيل.. تعاونا في ١١ أغنية بمعدل أغنية واحدة سنوياً.

أبرزها «سيرة الحب وبعيد عنك، وكذلك فات المعاد وألف ليلة وليلة»..

غنت أم كلثوم على مسرح الأولمبيا في فرنسا، أشهر المسارح على الإطلاق، وكانت الحفلتان الوحيدتان التي

تحييهما «الست» خارج الوطن العربي، وإحدى أهم الحفلات التي تقام على مسرح الأولمبيا لتبقى محفورةً في أذهان كل من حضرها على مر السنين.

يقول جان ميشال بوريس الذي كان مدير الأولمبيا في تلك الفترة أن ٣ مغنين فقط هم من حفروا أسماءهم في ذاكرة الأولمبيا: أم كلثوم، إديث بياف، وجاك برال.

ومن المواقف الطريفة التي حدثت أنها كانت تغني الأطلال.. وسقطت وهي على المسرح حين كانت تقول (هل رأى الحب سكارى مثلنا)، في الوقت الذي صعد فيه شخص من الجمهور على المسرح وأراد تقبيل قدميها.

في هذا الوقت كانت أم كلثوم أيقونة عربية بكل معنى الكلمة.. فقد كان الخميس الأول من كل شهر موعداً مقدساً يجتمع فيه العرب من كل الجنسيات أمام الراديو إلى موجة الإذاعة المصرية لسماع «الست».

من المواقف المشهورة عن أم كلثوم.. أنه في إحدى الحفلات.. صاح أحد الحاضرين قائلاً: فداكي الحمار وصاحب الحمار يا ست!.. أرسلت إليه وسألته عن سبب ما قال.. فأخبرها أنه باع الحمار، وكان كل ما يملك.. ليتمكن من حضور ذلك الحفل.

ومن الجمل التي اقترنت بأم كلثوم هي جملة (عظمة

على عظمة يا ست)

قيل أن صاحب هذه الجملة هو الحاج سعيد الطحان، أحد كبار تجار وأعيان مدينة طنطا، وكان متيماً بها حتى أنهم أطلقوا عليه «مجنون ثوما»، وكان يحضر كل حفلاتها إلى أن أفلس.

وفي أحد الحفلات لاحظت أم كلثوم غيابه وسألت عنه فحكوا لها قصته وأخبروها أنه أفلس، فذهبت إليه وردت إليه ثمن الأرض التي باعها ليحضر حفلاتها.

إلا أن البعض يرجع تلك الجملة لعازف الكونترباص عباس فؤاد، أو كما سمي بعد ذلك «عباس عظمة».. كان الموسيقار محمد عبد الوهاب قد لحن أغنية (انت عمري).. وحين انفتح الستار.. كان عبد الوهاب واقفاً وراء الكواليس، وأخذ عباس في العزف المنفرد.. فأعجب به عبد الوهاب كثيراً فقال عظمة على عظمة يا عظمة.. وبعد انتهاء الحفل وقبل أن تغادر أم كلثوم خشبة المسرح.. قالت: «يا عباس هو عبد الوهاب كان بيقول عظمة على عظمة ليك ولا ليا؟!».. فارتبك وقال: «ليكي طبعاً يا ست»، فضحكت أم كلثوم وقالت «يا كداب».. ومنذ ذلك الحين اقترنت العظمة باسم أم كلثوم.. عظمة الفن والإخلاص في العمل.

بدأت صحتها تتدهور في عام ١٩٧١، فلم تعد تقدم الحفلات، وكانت أغنية (ليلة حب) آخر ما غنته، وذلك في نوفمبر ١٩٧٢، ورغم المرض رفضت الإقامة في المستشفى لتلقي العلاج، حيث كانت تقول: «لو ذهبت للمستشفى، فسوف أموت هناك». وفي ٢٢ يناير ١٩٧٥ تصدرتْ أخبار مرض أم كلثوم الصحف وكانت الإذاعة تستهل نشراتها بأخبار مرض أم كلثوم وعرض الناس التبرع بالدم لأم كلثوم، إلى أن توفيت يوم الاثنين ٣ فبراير، عن عمر يناهز ٧٦ عاماً في القاهرة. وتم تشييع جنازتها في مسجد عمر مكرم الواقع بوسط القاهرة، فكانت جنازةً مهيبة، وتعد من أكبر الجنازات في العالم، إذ يُقدر عدد المشيعين بين ٢ إلى ٤ مليون شخص..

«أنا إن قدّر الإله مماتي.. لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي»

من قصيدة مصر تتحدث عن نفسها.. للشاعر حافظ إبراهيم وغناء أم كلثوم.

* * *

الفصل الثالث
الطريق..

١ - (الفقد)

«من فقد الله فماذا وجد ومن وجد الله فماذا فقد؟»

يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

«لا تستوحشوا الطريق لقلة سالكيه»

عليك أن تجد طريقك الخاص.. الطريق الذي تجد نفسك فيه كما هي.. كما عرفتها دائماً.. وعليك أن تدرك أنه لا توجد حكمة من دون اختبارات، ولا يوجد نضج من دون تجربة، ولا توجد حياة من دون مشقة.

يقول تعالى: **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**

لذلك فأنت دائماً في مشقة.. مشقة تجعل للحياة معنى.. ما الحكمة من الاختبار إذا كان سهلاً؟!.. ما مقياس نجاحك في الدنيا إذا كانت كل رغباتك متاحة؟!

Easy come Easy go..

صدقني ما لم تتعب في الحصول عليه لن تشعر أبداً بقيمته.. المتعة كلها في أن تسقط وتنهض.. تنكسر وتحلق.. تنطفئ وتتوهج.. كل هذا يجعل منك إنسان صلب.. قادر على مواجهة تحديات الحياة. يقول الشاعر فؤاد حداد «إيدك تكون أخشن وقلبك أرق»..

لا غنى عن التعب.. كل أساطير عالم إدارة الأعمال وأصحاب الشركات التي تتجاوز قيمتها المليارات هم أبناء التعب والسعي ومطبات الحياة.. هم أبناء العشاء الذي لا

---

[٢] [البلد: ٤].

يكتمل إلا بالنوم.. أبناء المِحن والمحاولات الفاشلة قبل الناجحة.

عليك أن تعلم جيداً أنك المسئول الأول عما سينتهي إليه المطاف.. وعما ستفكر به وأنت في الخمسين من عمرك جالساً في مقعدك تحتسي فنجاناً من القهوة.. أنت الوحيد الذي ستحدد كيف سيكون شكل حياتك بعد ١٠ سنوات من الآن.. هل ستظل معلقاً بين سماء المواصلات وأرض المترو؟!.. أم ستكون في سيارة فارهة ألمانية الصنع؟!.. أنت من ستحدد مستوى تعليم أولادك.. وسكنك.. ورفاهيتك.. أنت من عليه أن يقاتل ليحصل على كل ما يريد.. ولتعلم أيضاً أنه ليس عليك أن تبدأ من الغد.. لابد لك أن تبدأ الآن..

الحياة قرارات واختيارات لابد لك من حسمها سريعاً.. فالوقوف في المنتصف لن يقتلك حقاً.. لكنه سيجعلك خاوياً من الداخل لا تعرف ماذا تريد.. ولا تجد لنفسك صورة واحدة ترضى عنها حين تنظر في مرآتك كل يوم.. الله لا يحابي الجهلاء، ولن تأتيك الفرص وأنت جالس مختبىء من المواجهة..

كن مستعداً دائماً، وتوقع أي شيء من أي أحد.. ففي بيئة العمل لا يوجد مكان للثقة بالآخرين.. فنحن جميعاً في

صراع للبقاء.. لن تجد شخصاً يريد أن يراك أفضل منه إلا أباك.. ولن تجد من يدعو لك ملء قلبه غير أمك أو زوجتك. الحياة ليست بالمكان الآمن.. وأنا لا أقصد الأمان المادي أو المعنوي.. أنا أقصد تقلبات الدهر وأزمات الحياة واختبارات الله لعباده الصالحين.. يقول سيدنا أبو بكر: «لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماي في الجنة»..

ويقول الله في كتابه العزيز:

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

لذلك عليك حالاً أن تقيّم حالتك.. وتعرف مدى صلابة أو ركاكة الأرض التي تقف عليها.. تعرف إلى أين تريد أن تذهب.. وماذا تريد أن تفعل وكيف تخرج من تلك القوقعة..

إذا كنت حزيناً الآن.. مفطور القلب.. خاسراً.. وحيداً.. تنهال عليك الشدائد فاعلم أن الله إما يختبر صبرك فعليك أن تمتثل للاختبار، وإما يعاقبك بما أذنبت فعليك أن تتحمل نتيجة أخطائك.

عليك أن تأخذ وقتك في الحزن.. وأن تعطي انكسارك

---

[٣] [الملك: ٢].

حقه.. نحن بشر في النهاية.. نتألم ونعاني ونتحطم وننطفئ لنشرق من جديد.. واعلم أنك لو لم تُعطِ الحزن حقه سيظل تاركاً دخانه خلفه يطاردك في كل مكان.. فتجد نفسك حين يفرح الكل لازلت حزيناً.. تطاردك الذكريات من كل جانب.

قد يكون حزنك (فقد).. فقدت شخصاً تحبه.. أب.. أم.. أخ.. صديق.. حبيب.. أو حتى ابن.. الحياة مليئة بمثل هذه المواقف.. نحن أبناء تلك التجارب.. أنا أعرف جيداً أن لا أحد يعوض غياب أحد.. وأن وجود ١٠ خالات لن يجعلك تنسى فقدان أمك.. وأن قلبك المكسور لن يشعر بالسعادة وإن حيزت له الدنيا بما فيها.. حتى وإن أتوا لك بنجوم السماء كي ترضى.. أعرف جيداً كم هو مؤلم أن تفقد شخصاً عزيزاً عليك قد لا تكون سنحت لك الفرصة حتى بأن تودعه..

قد تكون فقدته بعد خلاف لم تأت لك الفرصة أيضاً لأن تصلح ذات بينكم.. هذا ما يجعل ألم الفقد مضاعف.. وقد تكون فقدته وهو على قيد الحياة.. حي يرزق تراه وتعرف أخباره، لكن تتابعها في صمت كأي غريب..

كل هذه أشياء قد تفقدك التوازن وتجعلك تفقد الشعور بلذة الحياة.. عاجز حتى عن الإحساس بطعم ما تأكل..

تجد نفسك تعيساً، فقط تقضي مدة حبسك في تلك الحياة الرتيبة التي تسلل إليها اليأس من كل جانب.. أصابك الفقد فتجرأ عليك الاكتئاب.. اتخذت من غرفتك قوقعة تبعدك عن ضجيج العالم.. اختصرت الدنيا في شخص واحد ففقدت العالم حين فقدته.. أعلم تماماً ما تشعر به.. ولا أبحث معك عن حل، ولن أخبرك بأن تقاوم.. بالعكس، كل ما يجب عليك فعله هو أن تأخذ وقتك في الحزن.. أن تحزن على أكمل وجه، حينها يمكنك الخروج ومواجهة العالم..

لا تضغط على نفسك ولا تقحمها في مقابلات العمل أو جلسات القهوة مع الأصدقاء ظناً منك أن ذلك كفيلاً بأن تنسى.. ذلك ليس إلا مجرد مخدر موضعي.. سيزول تأثيره بمجرد أن تضع رأسك على وسادتك وتنظر إلى سقف غرفتك.. حينها قد تجهش بالبكاء دون أي مقدمات..

هل تدري ما سبب بكائك؟!.. حين تبكي دون سبب فاعلم أنك تماسكت في مواقف كثيرة كان ينبغي عليك البكاء فيها.. نحن لا نتماسك.. نحن فقط نؤجل دموعنا حتى إشعار آخر.

يتساءل الكثير عن كيف أتجاوز صدمة موت أبي؟!

هناك صدمات نحن لا نتجاوزها أبداً.. أوجاع لابد لنا

من التعايش بها.

أوجاع كالقولون والصداع النصفي والجيوب الأنفية، لا يوجد حل نهائي سوى أن تعتاد الألم فيصبح جزءاً منك.. يقول الشاعر مصطفى إبراهيم:

«فسبحان اللي بيعودنا ع الحاجة فننساها
وبيخفف كاسات الناس بمية بدال ما يملاها
عشان طعم اللي فيها يروح..
عشان طعم اللي فيها يخف
يقولوا مجازاً المجروح..
إذا خد ع الوجع بيخف»

عليك أن تعي ذلك جيداً.. لأن بهذا الشكل قد تكون تجاوزت نصف المسافة.

باقي المسافة هي أن تكون أباً جيداً في المستقبل.. تفعل ما كنت تتمنى أن يفعله أبوك، ولكن لم يستطع.. صدقني في هذه الحالة فاقد الشيء سيكون أكثر الناس قدرة على إعطائه.

وهذا في حال الأوجاع التي لا تستطيع أن تتجاوزها.. أما بالنسبة مثلاً لعلاقة عاطفية أخذت منك الكثير من الوقت واستثمرت فيها كل ما تملك من مشاعر، وراهنت بكل قلبك وخسرت في النهاية..

فأنا لا أعتقد أنها مشكلة من الأساس، هناك أسباب لفشل العلاقات العاطفية.

أبرزها غياب التفاهم.. قلة الاهتمام.. الأنانية.. برود طرف ما ناحية الطرف الآخر.. كل هذه أسباب متعلقة بطرفي العلاقة.. وإذا انتهت العلاقة بسبب أي من تلك الأسباب ليس عليك سوى أن تسجد لله شكراً أنها انتهت.. فإذا استمرت العلاقات من تلك النوعية فأنت قد حكمت على نفسك بالشقاء إلى الأبد.. عليك أن تدرك مبكراً أن الحب وحده لا يكفي.. وأن التفاهم هو الوقود الحقيقي لاستكمال ذلك الطريق وتلك العلاقة.

أما إذا كان السبب خارجاً عن إرادتكما.. فدع لله تدبير الأمور.. واترك لله ما أردت.. حينها سيأتي الله بأفضل مما تمنيت ولو بعد حين.

حين توفي أبو سلمة.. جلست أم سلمة رضي الله عنها مفطورة القلب، فقالوا لها أن النبي علّمنا أن نقول «اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها»، فقالت: «وهل يوجد أفضل من أبي سلمة على وجه الأرض؟!».. فما كان من الله إلا أن عوضها وتزوجت من النبي صلى الله عليه وسلم.

البكاء على ما فقدت بقضاء الله وقدره أشبه بالبكاء

على اللبن المسكوب.. عليك فقط أن تسلم إرادتك لله وتنتظر أن يأتي العوض.

صدقني هذا الذي يحدثك عن كيفية تجاوز الفقد هو شخص عانى الأمرين من الفراق والفقد والانتظار.. وكان أكثر ما يهون على المرء ما فقد.. هو أن يحمد الله على ما بقي.. يقيناً منه بأن الأمور ستكون بخير دائماً في النهاية.

* * *

٢ - الخذلان

«ولعل قلبك لم يفكر جيداً»

لا أعتقد أن ثمة شيء أصعب من الفقد سوى الخذلان.. أن تضع رهاناتك كلها على الكأس الفارغة.

أن يكون حجم خسارتك أكبر من أن يعوض، وأن تبلغ صدمتك عنان السماء.. أن تلملم شتاتك وتكمل الطريق في صمت عميق بين الألم والكبرياء.. مأساة الخذلان أنه مثل الرصاصة التي لا تدري متى ومن أين ستأتيك.. ولكن ما يجعلها قاتلة حقاً.. أنها لا تأتي إلا من أقرب الناس إليك.

تسهر أنت وتعلق آمالك وأمنياتك على أشخاص معينين.. ترى فيهم الدنيا وتتعب من أجلهم، وقد تضحي بسعادتك من أجل فقط أن تراهم مبتسمين.. تكتمل معايير الحب بداخلك.. ويظهر في عينيك وفي فعلك وفي كلامك.. تصنع بالونك الخاص وتملؤه بالهواء قدر ما استطعت.. وإذا به لا ينفجر إلا في وجهك أنت.. فتجدهم ينكرون كل ما فعلت من أجلهم.. يحاورونك غير معترفين بما قدمت لهم.. اعتادوا منك فعل المستحيل لإرضائهم.. فأصبحوا يتعاملون مع الأمر على أنه حق مكتسب.

تخيّل معي أنك جالس تلوم شمعة لأنها لا تحترق بالقدر الكافي.

قد يخذلك الأهل.. وما أصعب أن تضع البيض كله في سلة الأهل فيفسد.. ذلك لأنهم دنياك الأولى ومهربك الأخير.. وأمانك الذي تلجأ إليه بعد أن تغلق كل الأبواب أمامك.. ذلك المكان الوحيد الذي لا تحمل له هماً وتظن أنهم لن يخذلوك أبداً.

قد تبتلى فيهم ولا تُخذل إلا منهم.

قد يخذلك الصديق.. ذلك الذي شاركته كل تفاصيل حياتك.. العيش والملح والضحك والحزن والسهر والحكايات والأسرار التي لا يعرفها أحد سواه.. وما

أصعب أن يخذلك الصديق.

قد يخذلك الحبيب.. ذلك الذي وضعته فوقهم في كل شيء وأعطيته وقتك كله، وحلمت معه وبه وجعلته هدفك الأسمى والرفيق الذي سيمضي بجانبك بقية حياتك.

تخيل أن تأتيك رصاصة من إحدى الجهات الثلاثة.. يالها من ضربة مميتة.. كيف للإنسان أن تقوم له قائمة بعد ذلك؟!.. كيف للإنسان أن ينجو من الخذلان.. فهم قد يخذلونك بصمتهم حين تنتظر منهم إجابة.. وببرودهم حين تنتظر منهم الاهتمام وإظهار الحب.. وبرحيلهم حين تكون في أمسّ الحاجة إليهم فتشعر أنك قد قدمت السبت والأحد والأسبوع كله.. ولم تحصد سوى الخذلان وقلة التقدير.. هنا تصاب برهاب التعامل مع أشخاص جدد.

تكتفي بهذا القدر من الأحزان.. مثلك كمثل الزجاج المكسور.. يجرح كل من يقترب منه.. ميكانيكية الدفاع الآلي تجعلك تصد كل من يحاول فقط أن يدنو منك.. تغلق قلبك على ما فيه من صدمات.. وتقول هذا يكفي.. لن أكرر أخطاء الماضي؟!.. وما يدريك لعلك من البداية لم تختر جيداً. وذلك باستثناء الأهل بالطبع.. فالإنسان لا يختار عائلته.. فهذا يكون ابتلاء من الله وعليك فقط أن تصبر وتحتسب أجرك عند من بيده الأمر كله.

أما إذا كان الأمر متعلقاً بخذلان الأصدقاء أو الأحباء.. فالأمر كله بيدك هنا.. فأنت لديك القدرة على أن تختار بيئتك المحيطة.. ولديك ما يكفي من الذكاء لتتوقع من سيخذلك.. أنت ترى الكثير من الإشارات التي تقرر أن تتجاهلها بمحض اختيارك.. أنت من تسير متجاهلاً كل اللافتات التي تراها في طريقك وقد كتب عليها:

«ابتعد، هذا الشخص يستغلك»

«هذا صديق لا يعرف سوى مصلحته»

«أنت أمام علاقة ستفشل»

لذلك فقليل من الأمل مهم، وكثير من الأمل قاتل.. فالأمل هنا يجعلك تصدق أنك قد تصلح ما لا يمكن إصلاحه.. وأن كل تلك الرسائل هي مجرد أوهام في خيالك فقط..

لذلك في هذه الحالة ليس عليك إلا أن تستفت قلبك.. فالقلب يرى ما لا يراه العقل وينقبض في تلك المواقف.. وإذا شعرت بمثل هذه الأعراض ينبغي عليك أن ترحل فوراً قبل أن تتفاقم الخسائر ويزداد الأمر سوءاً..

يحكى أن رجلاً كانت لديه شجرة في حديقته.. وكانت الشجرة تفسد شكل الحديقة كلها.. وكان يومياً يعقد النية أن يقطعها، ولكن يؤجل الأمر إلى الغد.. إلى أن كبرت

الشجرة، وشاخ الرجل وأصبح من المستحيل عليه أن يستطيع التخلص منها.. وبقيت الشجرة تفسد الحديقة حتى رحل.

عليك أن تتحلى بالشجاعة الكافية التي تجعلك تقرر الابتعاد عن كل من لا يدرك قيمتك.. كل ما يمتص طاقتك ويهدر وقتك.. عليك أن تصنع سفينتك الخاصة لتنجو من ذلك الطوفان.. الأمر كله بيديك.. بيديك وحدك.

ماذا وإن كنت ما أقوله أصبح نصيحة متأخرة.. وحدث ما حدث وخذلوك بالفعل وانتهى الأمر بك تعيساً مصاباً بفوبيا الاقتراب من البشر؟!

لتتجاوز الخذلان عليك أن تعلم أنه ليس من الطبيعي أن تعاقب الأشخاص الجدد على أخطاء مَن خذلوك.. تعامل بأريحية.. لا تنتقم.. لا تضع بروازاً معيناً للعلاقة.. كن كما كنت في المرة الأولى.. عليك أن تتخلص من مناعتك الضارة التي اكتسبتها.. أنت الآن شفيت وانتهى الأمر. يكفيك خيراً بالخبرة التي اكتسبتها بثمن غالٍ جداً.

كل ما عليك فعله هذه المرة هو ألا تتجاهل الرسائل التي تأتيك.. وأن تعرف جيداً أنك ما كنت لتكون بكل هذه الحكمة.. بغير أن تخذل مرة ومرتين.

فأنت تجد طريقتك الأصوب للنجاة وللحياة في كل

مرة.

* * *

٣ - الوحدة

لا بأس ببعض الوحدة

تأتي الوحدة كنتيجة منطقية للفقد أو الخذلان.

الوحدة: ذلك النفق المظلم الذي لا ينتهي أبداً.. ذلك الصراع المستمر بين أن تنعزل بإرادتك لأنك لا ترغب أن تتواجد معهم.. أو تنعزل مضطراً لأنك غير مرغوب فيك..

النتيجة واحدة في كل الحالات.. أنت في قوقعة صغيرة داخل القوقعة الكبرى.. أنت للأسف في عنق الزجاجة.. مهمش.. غير مهتم بأي شيء يحدث.. لا شيء قد يشكل فارقاً بالنسبة لك.. لا الأعياد ولا المناسبات الاجتماعية ولا التواريخ المنتظرة.. حتى الأجازات التي تنتظرها في نهاية كل أسبوع فقط لتتنفس.

لم يعد كل ذلك مهماً بالنسبة لك.. فالوحدة جعلت منك مجرد «مانيكان».. جسد فارغ من الروح يرتدي يومياً

قناعه الباسم ويذهب لمواجهة ضغوط الحياة دون أن يدري أحد عن آلامك وأحزانك الدفينة.. تلتف حولك الأزمات لتشكل حزاماً ناسفاً قد ينفجر في أي لحظة.. قد تجد نفسك كالأطفال يغضبك أي شيء ويحزنك كل شيء.. شديد الحساسية.. ليّن القلب في مواجهة أظافر الحياة.. لا تنتظر شفقة أحد ولا تطلب المساعدة أبداً.

كل ما ترغب به هو أن تُترك وشأنك.. لا مزيد من العلاقات الفارغة.. لا مزيد من الأصدقاء.. لا مزيد من التملق والمجاملات من أجل أوضاع اجتماعية أفضل.. كل ما تريده هو أن تختلي بنفسك.. تترك هاتفك بالأيام، وهنا لا تلاحظ الفرق بين نسبة الشحن عندما تكون مائة بالمائة أو أقل من ١٠..

لا تهتم بسجل مكالماتك ولا تلتفت للرسائل.. أنت لا تنتظر شيئاً طارئاً على أي حال.. معمظها رسائل من شركة الهاتف تخبرك بعروض جديدة وبوحدات مجانية قد حصلت عليها..

تكون وحيداً عندما تنضج وتجد هاتفك قد خلا من الأغاني، حتى أن جرس الهاتف هو مجرد نغمة مجسمة موجودة منذ أن اشتريته ولم تقم بتغييرها أبداً.. لم تعد ترغب أن تلتقط لنفسك صوراً جديدة.. ولم تعد مهتماً

بالجدل المُثار على «السوشيال ميديا».. تجد الجميع يلعبون الألعاب المشهورة في وقتها.. في حين تجلس أنت وتشرب مشروبك المفضل أو تأكل وجبات خفيفة في منتصف اليوم.. تجد نفسك في وادٍ غير واديهم.. ملكاً في مكان ما لا يسكنه ولا يحكمه إلا أنت.

تدرك قيمة التخلي.. فتترك كل شيء بإرادتك المطلقة.. تزهد في كل ما كنت ترغب فيه.. لا تندهش ولا تتعجب.. إذا سمعت بوفاة أحد ما تعرفه.. تكتفي بأن تقول «الله يرحمه»، وتتذكر محاسنه وتعفو بينك وبين نفسك عن كل مساوئه.. تتجاوز جميع الأحداث بمنتهى السلاسة.. لا تغضب إلا لنفسك ولا تبك إلا بمفردك.

قد تجد ذلك أفضل أحياناً وقد تجد أنك أخيراً وصلت لراحتك النفسية، وحصلت على مفتاح السعادة.. لكن هل هذا أمر صحيّ إنسانيًا؟

الحقيقة المزعجة هنا أنك أصبحت شخصاً انعزالياً مكتئباً.. فرّ هارباً من مواجهة الحياة.

إن الحياة مشاركة.. وأنت شئت أم أبيت ستجد نفسك مضطراً للتعامل مع البشر، حتى وإن كان مجرد تعامل سطحي.. كل ما حدث هو أنك فقدت الثقة جرّاء ما حصدت من تجارب فاشلة على المستوى العاطفي أو

الاجتماعي.. وقد لا تكون تجارب فاشلة.. قد تكون فقدت شخصاً عزيزاً رغماً عن إرادتك وتسبب غيابه في شعورك بكل تلك الوحدة..

وحدتك تبدأ من داخلك أنت.. أنت فقط من يستطيع أن يتخيل شكل النور في نهاية ذلك النفق.. إذا كنت مجبراً على أن تكون وحيداً فاعلم أنك في المكان الخطأ، واعلم أنها علاقات مرهقة نفسياً لابد لك من إنهائها.. والبحث فوراً عن صداقات أخرى وعلاقات أقل توتراً وأكثر عمقاً.. علاقات جديدة تتطور بهدوء دون أن تسبق الأحداث أو تقفز بين مراحلها.. وانتبه لذلك جيداً فقد يجعلك الاحتياج تشعر أن الإعجاب حب.. وتتسرع في تحديد نوعية مشاعرك تجاه هؤلاء الأشخاص الجدد.. لذلك عليك أن تتأنى جيداً قبل أن تتفوه بأي وعود أو كلمات التزامية.

إذا كنت لازلت تمر بأعراض الاحتياج.. فمن الضروري أن تظل وحيداً في فترة نقاهة حتى تستطيع مع الوقت أن تمسح زجاج نظارتك وأن ترى الأمور بشكل أفضل.. لكن لا تستغرق في وحدتك كثيراً حتى لا تصبح هي منطقة أمان زائفة في النهاية..

كل مرحلة من حياتك لن يتبق معك منها سوى من يحبك فعلاً.

أو كما أحب أن أقول دائماً: «نقطة ومن أول الناس».

* * *

٤ ـ فقدان الشغف

«أزمة منتصف الطريق»

هل سألت نفسك «ماذا يحدث بعد أن تكون وحيداً؟!»

ببساطة تفقد شغفك.. والشغف هو أن تحتفظ بقدرتك على الطموح تجاه الأشخاص والأشياء.. تجاه الحياة.. أن تظل لديك الإمكانية بأن تحلم.. أن تقضي حياتك مثل طفل يطارد فراشة.. تشتهي التعب والجري خلف ما تتمناه للأبد.. فلا تتوقف أبداً عن النجاح، ولا ينتهي طلبك للسعادة مهما شقّ الطريق.

عندما تشعر بالوحدة.. تشعر أنك أصبحت تقاتل بمفردك.. لا تقاتل من أجل أحد.. لا أحد ينتظرك في نهاية هذا اليوم الطويل.. لتلقي برأسك المتعب على كتفه.. وتضع قلبك بين كفّيه.. لا يوجد أحد يهون عليك أو يسأل عنك.. لا يوجد من يهتم بتلك التفاصيل البسيطة كأن

يسألك:

«هل أكلت؟!»

«هل كان يوماً جيداً؟»

«هل أنت بخير؟»

هي أشياء صغيرة لكن تعني الكثير لهؤلاء الذين يقاتلون يومياً في رحلة إثبات الذات.. على الأقل تشعر أنك تفعل ذلك من أجل شيء ما.. فيهون عليك التعب وتكتسب القدرة على الاستمرارية.

ما تفعله بك الوحدة هو أن تجعلك مثل الضوء الخافت أو «اللمبة السهاري».. في المنتصف بين كونك مضيئاً وبين كونك معتماً.. تذهب للعمل بقلبك المكسور مجبراً.

تفقد قدرتك الإبداعية وتشعر بتراجع أرقامك وتدني مستواك.. تشعر أنك تميل.. تميل ببطء شديد لكن لا تسقط.. تميل دون أن يلاحظ أحد.. فيظن الجميع أنك بخير.

لا أحد يعلم ما يدور بداخلك ولا ما يجري برأسك المزدحم.. لا أحد يدري شيئاً عن عودتك ليلاً والحوار الدائم بينك وبين صاحب «الكشك».. تشتري نفس الأشياء يومياً.. نفس العشاء الخفيف.. تتنقل بين نفس قنوات التلفزيون إلى أن تنام.. وتستيقظ وتدور في نفس الدائرة

دون أن تفكر حتى في البحث عن مخرج..

أتخيل هنا عادل إمام وهو يقول في الفيلم الشهير: «لقد وقعنا في الفخ»

يقول الشاعر محمد جمعة الإسناوي:

أوقات كتير تطلع لتحت

وساعات كتير تنزل لفوق

عاشق تعيد نفس الغلط

قابل تكون

زي الفراشة اللي اشتهت

طعم النيون

وأول ما تحضن حلمها

تسقط ف شرك العنكبوت

هو اللي مات عطشان أمل

زي اللي عاش مستني موت؟!

هو اللي مات عطشان أمل

زي اللي عاش مستني موت؟!

يا لها من مرحلة مريرة.. أن تموت داخلياً وأن تتساقط مثل أوراق الخريف.. وكل هذا دون أن تكون لديك حتى الرغبة في أن تقاوم.. إذا شعرت بمثل هذه الأعراض فلابد لك من وقفة مع النفس.. وألا تجعل حياتك مرتبطة بشخص

ما.. اهتم بنفسك أولاً وسيهتم بك الجميع بعدها.. استثمر في نفسك وفي شكلك ووزنك وصحتك أولاً، تعلّم لغة جديدة. واذهب إلى السنيما.

اشترِ كتاباً جديداً.

«اشغل نفسك عن نفسك بنفسك».

عش يومك من أجلك أنت.. اجعل كيانك فوق كل اعتبار.. إن تأخر الحب دعه يتأخر.. ليست نهاية الدنيا وأنت لست متأخراً.. فقد يكون رزقك المتأخر أفضل من أرزاقهم المتقدمة، وقد تأتيك فرصة العمر بعد الثلاثين.. بعد الأربعين، لا يهم. كل ما هو مقدر لك سيأتي في موعده تماماً.

لا تبتئس حين ترى أبناء جيلك لديهم العمل والبيت والأولاد.. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.. المهم الآن هو أن تعيد الأمور إلى نصابها.. وتدرك أنك بطل حياتك الحقيقي.. وأن تسعد نفسك بكل الطرق الممكنة.. وأن تستعيد شغفك لأن الطريق مازال طويلاً.. مازال طويلاً جداً.

* * *

٥ ـ الخوف

وَلَنَبْلُوَنّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ

الخوف هو ما يجعل الإنسان عدو نفسه.. قد يقتله حرفياً.. لا قتلاً مجازياً أو اغتيال معنوي.

أنت بالفعل قد تموت من الخوف.. أنت لست هنا أمام أب سيدافع عنك.. أو أم تبرر تصرفاتك وتُعاملك بلطف.. العالم بالخارج في منتهى القسوة.. عليك أن تواجه وتدافع عما تحلم به.. أسوأ ما قد يفعله الخوف بك هو أن تتوهم أن الأسوأ قد حدث.. وأنه لا يمكن للنهر أن يجرفك إلى ما هو أفضل من ذلك.

تتوهم أنك لن تسقط مجدداً، لمجرد أنك استشعرت وجودك بالقاع.. والحقيقة التي لا مفر منها هي طالما أنك لازلت على قيد الحياة فلا يوجد قاع.. مهما ساءت الأمور فقد يحدث الأسوأ.. ليست نظرة تشاؤمية بحتة ولكنه الواقع.

هل تظن أنك لا تخشى الموت؟!.. أنا أيضاً كنت أظن ذلك حتى الخامس عشر من أغسطس للعام ٢٠٠٣.. كنت

---

[٤] [البقرة: ١٥٥].

على وشك إجراء عملية جراحية لتطويل أوتار قدمي اليسرى مع إجراء جراحة بسيطة في الركبة.. عملية عادية جداً.. نسبة فشلها قد تكون صفر بالمائة.. أنا لن أموت أبداً مهما حدث. لم يكن الموضوع ببالي من الأساس.

الجميع حولي يطمئنوني.. في الصباح كنت مبتسماً على غير العادة، وكأني ذاهب في رحلة مدرسية.. ودّعت من أحبهم بأحضان قصيرة لا تعني وداعاً بل تعني إلى اللقاء.. لم يستطع أبي الحضور متعللا بظروف عمله.. لم أصدق ذلك طبعاً فأنا أعرف أن أبي أضعف من هذه اللحظات.. حين جاءت لحظة ركوبي السيارة.. احتضنني أبي وقد لمعت عيناه.. يا إلهي.. أنا لم أره بهذا الضعف والخوف مسبقاً أبداً.. قال لي «مع السلامة يا سكر بابا»

كنت قد كبرت على ألا يناديني باسمي.. ولكن كان وداعاً حميمياً للغاية.. شعرت بدفء يديه على كتفي وبنبرة صوته المليئة بالقلق حيالي.. لم يقل لي أنه يحبني لكن عيناه قالت ما تعجز عن صياغته كل مفردات اللغة.. في تمام التاسعة وصلنا إلى مستشفى كيلوباترا.. كانت إحدى مستشفيات الطبقة الراقية.. التي لم نكن منها، ولكن كان خالي كذلك بحكم علاقاته قد تكفل مشكوراً بكل شيء

تقريباً.. بدوت رثاً هزيلاً ولكن بشوشاً مقبلاً على الأمر دون أي خوف.. دخلت إلى الغرفة التي تبدو وكأنها جناح ملكي في فندق شهير يطل على النيل.. كان بها تلفاز به قنوات مخصصة للأطفال في عمري.. كانت الممرضة ودودة جداً.. ابتسمت لي وطلبت مني الكشف عن ذراعي لتأخذ عينة من دمي..

حينها بدأ الخوف يتسلل إلى داخلي وبدأت أتوتر شيئاً فشيئاً.. انغمرت في الكلام مع خالتي إلى أن تجلط الدم في السرنجة واضطرت إلى سحب عينة أخرى.. كان اليوم طبيعياً جداً..

حتى أخبروني أنه يتوجب عليّ تغيير ملابسي وارتداء قميص من نوع خاص، لكني كنت أعرفه جيداً.. كانت أزراره من الخلف.. يشبه ذلك الموجود في المصحات النفسية. أو مستشفى المجانين كما تصورها الأفلام.

ذلك الذي ارتداه قناوي (يوسف شاهين) في فيلم باب الحديد.. وهنا بدأت أشعر أنني على وشك الدخول في فخ ما.. تجاهلت خوفي.. لم أستطع أن أجد الأمان بين عيني أمي.. فقد كانت هي الأخرى في أشد درجات القلق والخوف.. كل هذا كنت أستطيع تجاوزه بمفردي.. إلى أن

وضعوني فوق «الترولي».. وبدأ مشهد مشابه لما أراه في الأفلام..

ردهات المستشفيات المظلمة مع صوت واهتزازات عجلات الترولي والحوائط تمر جواري سريعاً.. كان المشهد كفيلاً بأن يحفز غريزة البقاء بداخلي.. وجدت دموعي تتساقط من كل مكان في وجهي.. وجدت يد أمي تمسك بيدي وتسألني «انت خايف؟».. لم أستطع حتى أن أجيب على ذلك السؤال.. اكتفيت بأن هززت رأسي بما معناه نعم.

دخلت غرفة العمليات شخصاً وخرجت شخصاً آخر.. مهما ظننت أنك لا تخاف.. فاعلم أنك لم تفتش في دفاترك جيداً.. إن لم تخف على نفسك فحتماً هنالك ما تخاف عليه.. حتى في أصعب المواقف.. ستجد لديك ما تخاف أن تخسره.

الخوف مهم،

قليل من الخوف قد يجعلك تستمر.. ويجعلك تقاوم.. يجعلك تشعر بالمسئولية تجاه من تخاف عليهم.. أنا لا أطلب منك أن تتغلب على خوفك أبداً.. بل أطلب منك أن تتحد معه وتجعله مجنداً يحارب في صفك ما دام يحمل سلاحاً.. أن تجعله دافعاً لا عائقاً.. الخوف كأي شيء..

يتوقف فقط على الجهة التي تراه منها.

* * *

٦ - الطاووس

الغرور..

الخطيئة الأم.. تلك التي أطاحت بإبليس وأخرجته من الجنة.. حين رفض السجود لآدم وقال

أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ[٥]

الغالبية العظمى تعرف إلى أين انتهى إبليس.. قليل من يعرف من أين بدأ وأين كان..

خُلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض، الحن والبن[٦] سفكوا الدماء وأفسدوا في الأرض فأرسل الله الجن فقضوا عليهم واستوطنوا الأرض ومكثوا

---

[٥] [الأعراف: ١٢]

[٦] (قال كثير من علماء التفسير خُلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان في الأرض قبلهم الحن والبن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم...)، «البداية والنهاية لابن كثير».

فيها إلى أن خُلق آدم عليه السلام.

ذكر السدي في (تفسيره) عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب، استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خُزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازنًا، فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لميزة لي على الملائكة.

كان إبليس قبل أن يخرج من رحمة الله يسمى عزازيل، وكان من الملائكة المشرفة ذوي الأجنحة الأربعة وكان من أشدهم اجتهاداً وأكثرهم علماً.

وكان يسوس ما بين السماء والأرض.. إلى أن خلق الله آدم فشعر إبليس بالغيرة، وحين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم سجدوا جميعاً إلا إبليس.. امتنع وتكبر وأخذته الأنا.

ذُكرت الأحداث تفصيلياً في القرآن الكريم

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا

[الكهف: ٥٠].

هبط إبليس من الملأ الأعلى، وخرج من رحمة الله، ونزل إلى الأرض، ملعوناً، ذليلًا، مذؤومًا، متوعدًا بالنار، هو ومن اتبعه من الجن، والإنس، وقد توعد بني آدم بالغواية، قال تعالى في سورة ص:

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

بدأت الرحلة بالغرور.. فأصابته بالغيرة.. ومن ثم الحقد.. فتحول ذلك الطاووس إلى ذلك الملعون المكروه إلى يوم الدين.

هناك مشهد رائع في واحد من أهم أفلام التسعينات في السنيما المصرية (صعيدي في الجامعة الأمريكية).. حين ضل مسعى ذلك الفتي الذي كان الثاني على الجمهورية، وحصل على فرصة الدراسة بتلك الجامعة كمنحة لتفوقه.. في ذلك المشهد يقول له والده الذي جاء زيارة له من القرية:

«بعت العربية يا خلف.. ماشي.. بس لازم تعرف ان أنا مقصرتش معاك.. أنا بعت فدان عشان أجيبلك العربية دي.. فاهم.. فدان أرض يا خلف.. وعايز تسيب الجامعة الأمريكاوية؟ طب ما تسيب العلام كله.. زمان كان في

---

[٨] [ص: ٨٢-٨٣].

راجل حكيم الراجل ده وقع في بلوة كبيرة.. وندر ندر قال لو ربنا نجاني أنا هبني جامع.. يا دوب بيبنوا في الجامع وبنوا سور صغير كده..والمولى اختاره، ولاد ولاد ولاده اتعذروا في قرشين باعوا السور بالأرض لخواجة غريب.. الخواجة هد السور وبناه من أول وجديد.. بنى بيت كبير يرد الروح بالك بنى البيت إيه؟ خمّارة يا خلف! الخواجة عمله خمارة.. شوف المكان ابتدى بإيه وانتهى لإيه.. مع إنه نفس المكان. البني آدم مننا جواه اللي يخليه راجل بحق وحقيق يا جبان وميستحقش يعيش. كل واحد جواه الجامع والخمارة.. شوف انت اخترت إيه يابني»

* * *

٧ - سرطان الروح

malade suis Je - أنا مريضة

«داليدا» صاحبة ذلك الصوت الذي يشبه ليالي ديسمبر الحزينة الباردة.. وتقلبات يناير بما يحمل من أمنيات جديدة.. ذلك البرزخ الذي تمتزج فيه النهاية بالبداية.. الأمل باللا شيء.. والحب بالخذلان.

تقول داليدا بعد أن أُنقذت من محاولة انتحارها الأولى

حين سألها المذيع في إحدى البرامج عن نظرتها للانتحار بعد مضي ١٥ عاماً على تلك التجربة فكان جوابها:

- أتعلم؟! في النهاية، لقد أغناني ذلك كثيراً، فلقد كنت أحاول أن أكتشف ذاتي، وبعد ذلك ساعدني التحليل النفسي على اكتشاف تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تبكي، وهي من كانت ترشدني طول الوقت لأنه في داخل كل منا طفل أو طفلة صغيرة تبكي في مكان ما في لاوعينا»

وفي ٣ مايو ١٩٨٧، عادت داليدا لتكرر محاولتها الأولى في الانتحار بعد أن تناولت جرعات زائدة من الأقراص المهدئة. غادرت هذا العالم تاركة وراءها رسالة فيها جملة واحدة:

- سامحوني الحياة لم تعد تحتمل..

قبل ذلك بفترة صعدت داليدا على المسرح لتغنيJe malade suis في أداء استثنائي وكأنها تحاول إيصال رسالة للعالم الذي قابل رسالتها بالتصفيق الحار.. لم يكن يعلم أن النهاية قد اقتربت وكل ذلك بفعل الاكتئاب.

تقول كلمات الأغنية:

ما عدت أحلم، ما عدت أدخن

ما عاد لي الماضي نفسه

إني سيئة بدونك

إني قبيحة بدونك

إني كيتيم في ملجأ

ما عادت لدي الرغبة لأعيش حياتي

فحياتي تتوقف حين تظهر أنت

ما عادت لدي حياة حتى فراشي

يمسي رصيف محطة حين ترحل عنه

فأنا مريضة

مريضة بالكامل

يا ليت العالم فهم أنها مريضة بما هو أخطر من السرطان، ألا وهو الاكتئاب.

ذلك الفخ الذي قد تقع فيه مهما حاولت أن تتجنبه.. ذلك القاتل المحترف الصامت الذي يغتالك في هدوء تام.. ويقتلك في جريمة كاملة.. فلا يترك وراءه أي أثر.. تلك المعركة التي تنتهي غالباً بأن تنغلق على نفسك وتترك العالم.. التي قد تجعل من رجل تجاوز الأربعين يبكي إذا تأخر النادل في أن يأتي بفنجان قهوته.. والتي تجعل مراهقاً يغضب ويترك المنزل لمجرد أن الطعام الذي أعدته الأم لم يكن مفضلاً بالنسبة له.. لسنا آلات يا سادة.. علينا أن نعترف أننا مرضى.. علينا أن نعترف بأن هنالك ثمة مشكلة تحتاج لحل.

لعنة الاكتئاب تكمن في قدرته على أن يتسلل إليك دون أن تشعر.. لا تعط خوانة للأمر.. أنت فقط تعيش نفس الأحداث مع نفس الأشخاص، ولكن فجأة تجد نفسك تحت قبضة الحزن.

في بداية الأمر تشغلك التفاصيل الصغيرة التي غالباً ما تتغافل عنها لئلا تعكر صفو يومك.. تقول «لن أسمح لشيء بأن يفسد يومي.. تقول لنفسك أنا بخير».. مجرد يوم سيء ليس إلا كما تقول دنيا مسعود في أغنيتها (مش مهم).. «يعني ليلة زيادة.. ليلة زيادة ضلمة مش مهم»

صدقني هو ليس كذلك مطلقاً.. أنت الآن على نظام الاكتئاب، ولا يوجد لدينا عروض أخرى.. لقد علقت!.. وأصبح من الضروري أن تواجه العالم بوجه زائف.. وجه ضاحك.. كنت أقول في قصيدة بعد الثلاثين:

«العالم ميهموش حالك

ولا عمر الناس هتقول مالك؟!

ولا حد هيتكلم عنك ويقول معذور

هيجيلك وقت تروح شغلك..

إن شاالله إن كان قلبك مكسور

تضحك ع الناس وبكاك محبوس

كل ده علشان محتاج لفلوس»

لا أحد يهتم بما تشعر به.. ولا فرصة لديك لتواجه العالم بوجهك الحقيقي وحزنك المضاعف ودموعك التي تراكمت تحت وجنتيك حتى أوشك وجهك على الانفجار.. صدقني لا أحد يهتم.. بمجرد أن تظهر بوجهك الحقيقي.. سيهاجمك العالم.. لن يرحمك أحد.. تضحك كنوع من الذكاء الاجتماعي ومن ثم تكتشف أن لا أحد هنا حقيقي.. جميعنا نرتدي نفس الأقنعة.. أصبحنا في حفلة تنكرية اسمها «التجاوز» أو بمعنى آخر «زق الأيام».. تظن أنها فترة وستمضي، وأن كل شيء سيكون بخير في النهاية.. ولكن للأسف لا يوجد تحسن.. يبقى الحزن على ما هو عليه.

تمر الأيام ولا جديد تحت الشمس.. يستمر الكذب وتستمر المعاناة، ويأخذك الاكتئاب من قاع لقاع.. فترة وجيزة حتى تصبح غير اجتماعي.. لا تكترث بالمناسبات العائلية.. لا تبكي.. لا تتأثر مطلقاً بما يدور حولك.. تبتعد شيئاً فشيئاً عن أصدقائك.. عائلتك.. تبتعد عن نفسك حتى.. تصبح شخصاً آخر كلياً.. لا يوجد أي شيء في الكون قادر على إسعادك.. حتى تلك الأشياء الصغيرة التي كانت تجعل للحياة بريقاً في عينيك غابت وانطفأ كل شيء.. لا توجد قيمة لأي شيء.

يرهقك كل شيء حتى الإيماء بالرأس.. السلام المعتاد.. الكلام مع صاحب «الكشك» تحت المنزل.. تشعر بأن كل شيء متعب ومزعج ومغصب.. لا يوجد مكان واحد في العالم مريح.. لماذا ستذهب إلى العمل إذا كان لا شيء يرضيك حقاً.. إذا كان كل شيء في عينيك بلا قيمة؟!..

صدقني، الموضوع لا يتعلق أبداً بمدى شفافية روحك وقربك من الله.. لا علاقة له بصلاتك.. الصلاة تساعدك على التعافي ولكن ليست هي العلاج الوحيد، فالاكتئاب النفسي «مرض الجسم الكلي»، هو ليس مرضاً نفسياً فقط، وإنما يؤثر أيضاً على كل أعضاء الجسد.

يؤثر على نوم الشخص وطعامه، والطريقة التي يفكر بها عن نفسه وعن الأشياء التي تحيط به. ويعتبر الاكتئاب النفسي مرضاً مثله مثل الأمراض الأخرى، كارتفاع ضغط الدم وقصر النظر وغيرها.. لابد له من علاج.. لا تكترث لما يقوله الناس.. أنت لست مجنوناً.. أنت مريض فحسب.. يتم العلاج عن طريق محسنات أو مثبتات المزاج حسب الحالة.. لا تخجل أبداً من الذهاب لطبيب نفسي.. لا تخجل من كونك مكتئباً.. تعامل مع الأمر بسلاسة..

خذ الدواء في موعده.. صلِّ الصلاة في أوقاتها.. اقتل الفراغ ولا تستسلم للعزلة.. لا تنسحب من المناسبات الاجتماعية ولا تكتم دموعك.. فالبكاء استجابة طبيعية للألم النفسي أو الجسدي.. إذا شعرت برغبة في البكاء لا تتردد.. سافر إذا استطعت وتعرّف على مجتمعات وثقافات جديدة.. قاوم.. قاوم إلى أن تنتصر.. وسوف تنتصر.

* * *

الفصل الرابع

وماذا بعد

١ - هذا هو عدل ربك

النجاح الحقيقي.. هو أن تصل للسعادة.. تلك هي نهاية ذلك السباق الأزلي..

المحصلة النهائية نحو كل ما تسعى إليه.. لطالما آمنت أن السعادة الحقيقية تكمن في مساعدة الآخرين.. بذل الجهد من أجل ذلك.. عن نفسي أُفضل دائماً أن ألعب دور الشمعة التي تحترق من أجل الكل.. أن أقوم بالتضحية، لا أن ألعب دور الضحية .

كتبتُ في إحدى قصائدي:

«وبتوقع أقل عشان محسش إنها بتضيق

وبفرح بس لما أشعر بإني ساعدت حد في شيء»

هذا ما يصنع يومي ويجعلني أشعر بالارتياح.. قبل أن أنام يمر اليوم أمامي بكافة تفاصيله.. ما يجعلني أنام بضمير هادئ، هي تلك المرات التي حافظت فيها على هدوئي حين عاملني النادل بفظاظة.. والتمست العذر

وقلت لنفسي «لا بأس.. ربما يمر بيوم سيء»..

هي تلك المرات التي ساعدت أحد جيراني في حمل أحد الأكياس.. أو ابتسمت وألقيت التحية على «عم محمد المكوجي».. الذي يحب دائماً أن يشعر بأنه محل اهتمام.. تلك المرات التي تركت فيها سائق التاكسي يحتفظ ببقية الأجرة.. تلك المرات التي رأيت فيها بائع المناديل واشتريت منه.. بالفعل أصبح لدي مناديل قد تكفي لفتح «كشك» مناديل صغير..

تلك المرات التي لم أفاصل فيها مع «يُسر»، بائعة الخضار.. تلك المرات التي جعلت فيها أحداً يخدعني ويقول لي «أنا مش من هنا ومحفظتي اتسرقت».

تأتي دائماً في بالي جملة «من خدعنا في الله انخدعنا له».. جبر الخواطر وتلك الأشياء البسيطة تجعل لحياتي معنى وتشعرني بدفء لا مثيل له..

أحببت دور المضحي وأعتقد أنه يناسبني تماماً.

أخاف دائماً من أن أكرر مأساة »ماسابومي هوسونو».. كان هو الياباني الوحيد الذى نجا من حادثة تيتانيك.. عندما عاد لليابان تم طرده من وظيفته، ولُقب بالجبان في الصحافة اليابانية لأنه لم يمت مع الآخرين ولم يضحي بمكانه في قارب النجاة لإنقاذ شخص آخر.

لا أريد أن أكون صفحة سيئة في حياة أحد.. بالطبع كلنا أشرار في قصص الآخرين، ولكن أحاول قدر استطاعتي ألا أكون كذلك.. لا أدعي المثالية ولكن هذا ما أطمح إليه وهذا ما يؤدي بي في النهاية للحظات السلام النفسي.. التضحية ليست قدرتك على العطاء.. في الحقيقة هي قدرتك على التخلي.. قد تجد الأم تدعي الشبع فقط لأنه لا يوجد سوى قطعة دجاج واحدة تركتها لك بمنتهى الحب والرضا.. تجد الأب يلبس نفس الحذاء لسنوات في الوقت الذي تُغير فيه حذاءك كل ٦ أشهر كحد أقصى.. أشياء لن تدركها سوى بمرور الوقت.. تحتاج لدرجة عالية من النضج لتدرك أن التضحية من أسمى وأمتع رسائل الوجود، فقد ورد في الأثر:

(ما عُبد الله بشيء أفضل من جبر الخواطر)

جبر الخواطر هو قمة التضحية والبذل والعطاء.. أغلب المشاكل تأتي من البخل.. لا أقصد البخل المادي بالطبع.. ما أقصده هو بخل المشاعر.. بخل الاهتمام.. بخل «الكلام الحلو».. بخل «سلامتك وخلي بالك من نفسك ووحشتني».. أعرف أن زوجتي تحبني.. ولكن أحتاج إلى أن أسمعها باستمرار.. حتى وإن كانت كل أفعالك تثبت ذلك.. قلها لي.. أخبرني بها لأعلم وكررها كي أطمئن..

الحياة تحتاج «التطييب»، ذلك النوع من الناس الذي تشعر بأنهم طاقة حب تمشي على الأرض.. هؤلاء هم من يصنعون الفارق في أيامنا الصعبة.. هم من يهونون علينا مصائب الدنيا.. تطمئن بهم وتشعر أنهم درع حماية يلتف حولك ويعصمك من كل شيء.. لا تبخل بالنصيحة ولا بالمعلومة، فلا أحد سيأخذ لقمة من فمك.. خزائن الله لا تنفذ، وقد تأتيك النعمة لأنك تمنيتها لغيرك.. وقد تزول فقط لأنك احتفظت بها لنفسك.

هناك مثل شعبي يقول «إعمل الخير وارميه البحر»، الدائرة ستدور في النهاية وستحصد ما زرعت.. ومن يدري لعل جبر الخواطر هو من يزيد رصيدك من الستر.. **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**[٩]

كان أبي يقول دائماً «أحاول أن أكون كحبات السكر في حياة الآخرين».. وكان يكلمني عن الرزق ويقول لي «الرزق زي رغيف العيش كلنا بنفرفته وبناكله».. لله حكمته ولطفه الخفي الذي لا نعلم عنه شيئاً.. كل ما علينا أن نقدم النوايا الحسنة فقط

* * *

---

[٩] [الزلزلة: ٧].

٢ - «الدنيا ريشة في هوا»
mode Airplane

في البداية لابد لك أن تعلم أن سلامك النفسي يبدأ من حيث تبدأ حريتك ومساحتك الخاصة.. عليك أن تتخلص من كل ما يقيدك.. من كل ما يعقد حياتك.. ويكدر صفو يومك.. تلك التراكمات لابد لها أن تنتهي.. لابد أن تتخلص من كل ما يزعجك أو يرهقك نفسياً وعصبياً.. فقط تسترخي.. تضع حياتك كلها على وضعية الطيران mode Airplane.

سلامك النفسي يبدأ من داخلك أنت.. أنت من عليه أن يفلتر علاقاته.. كنت قد كتبت في إحدى الأغاني لفريق مسار إجباري كلمات تقول:

للحزن أصول بتقول إنك
من وقت طويل زعلان منك
ف اقعد مع نفسك واشكيلك
وادعيلك وابقى اسأل عنك
من وقت لوقت ابقى اطَّمن

على قلبك لو مر بأزمة

شيل منه الناس اللى باعوك

وخلاص مبقاش ليهم لازمة

تلك كانت هي الروشتة التي وصلت من خلالها للسلام الداخلي..

عليك أولاً أن تتصالح مع نفسك.. تصفي خلافاتكما وتنهي أزمات الجدال التي استمرت طويلاً، وبعد ذلك تقوم بالفلترة.. العمر قصير، ولم تعد في حاجة إلى العلاقات المزيفة أو الصداقات المبنية على المصالح فقط.. أنا لا أقصد صداقات العمل.. فالعمل مصلحة مشتركة وهذا طبيعي، بل أقصد صداقاتك الحقيقية، لا يجب أبداً أن ترتبط بمصلحة ما..

عزيزي، هؤلاء هم تحويشة عمرك.. قلبك تماماً يشبه شنطة ظهر خلفية.. فاحترس مما تضع فيه.. لم يعد في العمر متسع لعلاقات العتاب «مبتسألش ليه؟!.. انت ليه مبتردش على الموبايل.. انت عملت Seen ومردتش عليا.. أنت مقصر معايا»..

يا الله ما أثقل تلك العلاقات على قلبي.. صدقوني كل من كان يتعامل معي بهذا الشكل خرج من حياتي.. خمنوا ماذا حدث؟!.. أنا الآن أسعد وأهدأ بكثير مما كنت عليه.

أنا لست الآن مضطراً للاختباء أثناء تصفح الفيسبوك.. لست مضطراً لإلغاء علامتي «الصح» في الواتساب.. أنا حر تماماً.. كل من في حياتي يتقبلني كما أنا.. يتحملني وأتحمله.. أستوعب مساحته الخاصة ويستوعب مدى أهمية الحرية بالنسبة لي.. أحياناً حين يرهقني أحد بالعتاب غير المبرر تأتي على بالي جملة من أغنية عمرو دياب الشهيرة، نغمة الحرمان «فيه إيه هو انت اشترتني؟!»

»Do not let the behavior of others destroy your inner peace .«

لم يعد في العمر متسع لعشر أو حتى سبعة أصدقاء حقيقين.. اعرف كل الناس ولا تصاحب عن قرب أكثر من خمسة.. ليست قاعدة، ولكن أدعي أن ذلك أفضل بكثير.. كلما كانت دوائرك صغيرة كلما شعرت براحة أكبر.. الآن أنا أترك مساحات شاسعة من الحريه لأصدقائي.. من أراد الخروج الليلة فليخرج ومن لم يرد.. فأنا على ما يرام.

من تأخر تأخر، ومن اعتذر عن الحضور لا بأس بذلك.. أكثر من سنتين وأنا لم أعاتب أحداً على أي شيء.. أصبحت استراحة الجميع فقط لأنني لا أطلب مبررات.. لا أسأل عن سبب التأخير.. أفتح يومياً صفحات جديدة

لكل الذين أحبهم.. كنت أظن أن ذلك سيرهقني.. بالعكس.. شعرت براحة أكبر.. شعرت بأنني «offline».. منشغلاً فقط بما يجب أن أنشغل به.. لا توجد زيادات أو ضرائب استهلاك لمشاعري.. أصبحت أوفر جزءاً كبيراً من طاقتي.. وجدت نفسي مقبلاً على الحياة، ووضعت قدمي على أول طريق السلام النفسي!

تقول الشاعرة الإنجليزية Hughes Vanessa في إحدى قصائدها:

حسناً.. هنالك تحت نرجسيتك
مكان لا يهتم ماذا يقول الناس وبم يفكرون
مكان مريح جداً
هذا المكان في أعماقك أنت
تحت جلدك.
ذلك السكون الذي يحيط بك هناك
إنها روح.. غير ملوثة.. خام
لم يمسسها العقل البشري
لا تتقيد بالأشياء ولا المسميات من أي نوع
حينها يمكنك الحصول على سلامك النفسي
في أي وقت وفي أي مكان..
بغض النظر عما يحدث حولك

لأنه لديك مساحة هادئة خاصة بك

* * *

٣ - لكيلا تأسوا

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

للإيمان بالقضاء والقدر دور رئيسي في سلامك النفسي.. اليقين والثقة بالله وقراءاتك الجيدة لرسائله وعلاماته.. هي ما تجعل قلبك مطمئن في مواجهة ما يحدث.. فأما السفينة.. فأما الغلام.. فأما الجدار.. كلها أحداث تبدو في ظاهرها شر.. ولكن كانت هي الخير نفسه.. فكل ما يحدث يحدث لحكمة ما لا يعلمها إلا الله.. ومادام الأمر خارجاً عن إرادتك فكل ما عليك هو الاستسلام لإرادة الله.. «فمن رضي بقدري.. أعطيته على قدري».. لعله يختبر صبرك.. ولعل الاختبار يطول.. وتذكر دائماً ما بين طرفة عين وانتباهتها.. يبدل الله من حالٍ إلى حال.

---

[١٠] [الحديد: ٢٣].

تحكي قصة خيالية تماماً، لكنها ممتعة عن شخص من هواة تسلق الجبال، في إحدى الأيام قرر تحقيق حلمه في تسلق أعلى جبال العالم وأخطرها، وبعد سنوات من التحضير والسعي نحو أكبر قدر من الشهرة والنجاح قرر القيام بهذه المغامرة وحيداً.

وبدأت الرحلة كما خطط لها، ومعه كل ما يلزمه لبدء ما يسعى إليه.

مرت الساعات دون أن يدري، ووجد نفسه محاطاً بالظلام من كل جانب.. حينها كان قد وصل تقريبًا إلى نصف الطريق، لم يكن هناك أي مجال للتراجع، فالرجوع أشد صعوبة على النفس من إكمال الرحلة، وبالفعل لم يعد أمام الرجل سوى مواصلة الطريق الذي اختفي في ظلمة الليل الحالكة وبرودة الجو التي لا تحتمل.. كان الرجل لا يعلم أن فرحته لن تكتمل، فللأسف الشديد وقبل وصوله إلي القمة بقليل فقد الرجل اتزانه وسقط من على الجبل بعد أن كان على بُعد لحظات قليلة من تحقيق الحلم الذي كان يسعى إليه.

تمر أحداث حياته أمامه ببطء وهو يرتطم بكل صخرة من صخور الجبل. وفي أثناء سقوطه تمسّك الرجل بالحبل الذي كان قد ربطه في وسطه منذ بداية الرحلة، وكان

خطّاف الحبل معلقًا بقوة من الطرف الآخر بإحدى صخور الجبل، فوجد الرجل نفسه يتأرجح في الهواء، لا شيء تحته سوى الفراغ الذي لا حدود له، يتشبث بالحبل بكل ما تبقى له من عزم وإصرار.

عاد الأمل من جديد والتقط الرجل أنفاسه كمن عادت له الروح.

أخذ يقول «يا رب أنقذني.. يا رب أنقذني»

فأجابه صوت يقول: أتؤمن حقاً أني قادرٌ على إنقاذك؟

فقال «بكل تأكيد».. فأجابه الصوت مرة أخرى

إذن فاقطع الحبل الذي أنت ممسكٌ به إن كنت تريد النجاة!!

فحدّث نفسه قائلاً.. الحبل..؟؟ الذي هو ملاذي وسر نجاتي...؟؟ إنني أغرق وهذه هي القشة التي أتعلق بها ولا أجد غيرها.

وبعد لحظة من التردد لم تطل، ازداد تشبثاً بحبله... ولم يقطع الحبل.

وتنتهي القصة بفريق الإنقاذ الذي عثر على جثة رجل ممسك بيده حبل وقد جمده البرد تماماً.. على ارتفاع متر واحد من سطح الأرض.

متر واحد فقط من سطح الأرض!

القصة خيلبية بكل تأكيد ولكن مم لا شك فيه أنها تعطي درسا هاما عن رحمة الخالق.. فمهما بحثت لن تجد أرحم بك ممن خلقك.. الدنيا لست مكاناً للرفاهية.. أنت في دار اختبار.. عليك أن تكون مستعداً دائماً للابتلاء.. ومؤمناً أن الله معك.. لن ينساك.. سينقذك دائماً كما كان يفعل في كل مرة.

»Life is full of happiness and tears« ؛be strong and have faith.

كارينا كابور خان

عليك أن تعلم أن الجميع في سباق واحد ولكن لسنا في نفس المضمار.. لكل واحد منا ظروفه.. وهويته وشخصيته.. وعليك أن تستوعب ذلك جيداً.. أنت لست متأخراً.. فكرة أن جميع من بسنك تزوجوا ولديهم أطفال ويعملون بشركاتnational multi.. في الوقت الذي مازلت فيه تبحث عن وظيفة وتحدد ملامح مستقبلك.. هذا لا يعني أنك متأخر عنهم.. لسنا في لجنة امتحان محددة بوقت معين.. لا تقلق لن يأتي شخص ما ويقول «خمس دقايق وهلم الورق».. لا تنظر للآخرين وتشعر أنك في مؤخرة الصف.. الوقت مجرد وهم.

عليك أن تعلم مثلاً أن «أبو تريكة» بدأ يصبح معروفاً وهو بسن السادسة والعشرين.. أي أنه كان بعمر محمد

صلاح الآن.. وكان بعمر ميسي وهو حاصل على ٤ كرات ذهبية.. كريستيانو رونالدو حين كان بعمر السادسة والعشرين كان قد حقق كرة ذهبية واحدة، وتخيل معي أنه أكبر من ميسي بسنتين.. والآن ماذا؟!.. الآن لدى كلٍ منهما خمس كرات ذهبية.. في أي وقت قد تحسم الأمور لصالحك..

هل تعرف شكل الفنان «بيومي فؤاد» حين كان بسن أحمد مالك؟!.. أو حتى حين كان بسن أحمد السقا؟!.. بالطبع لا.. لم يكن أحد يعرف من هو بيومي فؤاد حتى وصل إلى الخمسين من عمره.. حسناً هو بدأ في ٢٠٠٥ ولكن لم يصبح «بيومي فؤاد» إلا بحلول ٢٠١٥، أي عندما كان عمره خمسين عاماً.

الزمن جند من جنود الله يسخره إلى من يشاء كيف يشاء.. كل ما عليك فعله هو أن تستمر في المحاولة.. أنت لا تدري في أي مرة تطرق فيها سينفتح الباب.. كن من أبناء المحاولات المستمرة قدر الإمكان.. لا تنظر للآخرين وتظن أن الأمور حسمت بهذا الشكل.. في حكاية الأرنب المغرور والسلحفاة المسكينة.. الناس نوعان فقط.. كذلك هي الحياة..

إما أن تحقق نجاحات قليلة في وقت صغير، فتظن

أنك قد ربحت وتألف النعم ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، وتزول النعمة لأنك قد ألفتها دون أن تدري..

يقول أحمد مكي في لقائه مع منى الشاذلي.. أنه كان في مسابقة ما بخصوص الملاكمة وكعادة الرياضيين دائماً هي أن مكان التدريب أو المباريات لا يخلو من زجاجات المياه.. فيقول أظن أني بدلت زجاجتي بالخطأ مع أحدهم.. فبعد عودتي من تلك المسابقة بفترة وجيزة أصبت بمرض ما.. ومن شدة هول أعراضه ظننت بأنه سرطان.. ضف على ذلك أنه ظل قرابة شهر ونصف يتعالج عن طريق مضادات حيوية ومسكنات تزيد من خطورة المرض.. ظل في تلك المأساة لمدة سنة ونصف تقريباً.. الماء أمامه ولكن لا يستطيع أن يشرب.. لا يستطيع النهوض حتى لاحتضان ابنه.. كل تلك القوة الجسدية انهارت وأصبحت لا شيء.. الحمد لله الآن هو في تمام الصحة والعافية.. ولكن يقول تعلمت درساً قاسياً.. وأدركت قيمة كل شيء في حياتي..

صدقني ليس مهماً أبداً مدى سرعتك.. المهم هو اتجاه السير.

هل تعرف مايكل فليبس؟! واحد من أشهر وأنجح السباحين في العالم وأكثرهم حصداً للميداليات عبر

التاريخ.

من كان يعلم أن جوزيف سكولينغ هذا الطفل السنغافوري الذي لم يكن يعرف اسمه أحد.. والذي قابل مايكل فيليبس في العام ٢٠٠٨.. سيأتي بعد ٨ سنوات فقط في أولمبياد ريو دي جنيرو ٢٠١٦ ليتفوق على مايكل فليبس في سباق الـ ١٠٠ متر فراشة.

يقول السنغافوري، جوزيف سكولينغ، أن «حلمه أصبح حقيقة»، حين سبح إلى جانب أسماء كبيرة في عالم السباحة وتغلب على «قدوته» مايكل فيلبس مشيراً إلى أن الأخير هو من شجعه كي يصل إلى ما وصل إليه.

صدقني أنت لا تعلم متى ستأتي انطلاقتك الحقيقية ومتى سيجازيك الله عن كل محاولاتك السابقة،

فقط استمر بالسعي والإيمان واترك كل شيء لله.. وتأكد تماماً من أنه «يدبر الأمر».

Every talent you have is not wasted .It is there because of a reason and God will open that door when the right time comes along to use it.

شانون ألدير

* * *

٤ - لا تقدر بثمن..

يُقال «جالس جميل الروح تصبك عدوى جماله»

ويقال أيضاً «من جاور السعيد يسعد»، حسناً إذن هل يتأثر الإنسان بمن يجالسه إلى هذه الدرجة؟!

نعم بكل تأكيد.. لذلك ينبغي عليك أن تبتعد عن كل من يترك في نفسك أثراً سلبياً.. كل من لا يعرف قدراتك ومعدنك الحقيقي.. هؤلاء الذين بمجرد أن تراهم لا تتوقف عن سماع أشياء تضايقك وكلمات تقلل من قدرك مثل أنت نحيف جداً!! ذكاؤك محدود!.. أنت ثقيل الظل!.. أنت ضعيف.

تلك الصفات وإن لم تكن فيك.. فهي تصبح فيك بشكل لا إرادي، وتظل عالقة بشكل أو بآخر في لاوعيك.. وتنعكس على تصرفاتك، وطريقة تعاملك مع الآخرين.. من فترة كنت شاهدت فيلماً قصيراً أدهشني.

بطل الفيلم طفل صغير يقول لأمه:

«أمي.. ما هي قيمة حياتي؟!».. تظهر علامات الدهشة على وجه الأم فتجيب.. «هذا سؤال كبير!»

تقوم الأم بإعطاء الطفل حجراً شفافاً صغيراً وتطلب منه أن يذهب ليعرف من الناس قيمة هذا الحجر.

في البداية يقابل بائع الفاكهة ويسأله «ما قيمة هذا الحجر؟!».. فيرد عليه «لا أدري.. ولكني ربما أعطيك موزة بالمقابل».. يترك الطفل بائع الفاكهة ويذهب إلى أحد المتاحف فيقابله شخص ما.. يقول له «لسنا مهتمين بإضافة ذلك الحجر إلى مجموعتنا». وفي النهاية يذهب الطفل إلى صاحب محل مجوهرات.. قام بتقييم الحجر عن طريق عدسة دقيقة وقال له:

- أظن أن هذه هي أكثر ماسة مثالية رأيتها في حياتي، بالنسبة لي هي لا تقدر بثمن.

عاد الطفل إلى أمه يسألها ما هي قيمة الحجر الحقيقية وما علاقة ذلك بقيمة حياتي؟! أجابته الأم: «سيقيمك الناس اعتماداً على وجهة نظرهم وعلى مستوى علمهم وإيمانهم بك، لكن ذلك لا يغير حقيقة أنك لا تقدر بثمن»

تذكر.. اجعل من حولك هم الناس الذين يعرفون قيمتك.

مثل صاحب محل المجوهرات الذي قيّم ذلك الحجر بحب واهتمام وحنان.. لأنك حقاً يا صديقي لا تقدر بثمن.

* * *